أ. هـ. بِج وِزَرْ

قصص من دانتي

ترجمة

أمين حسان

مراجعة

د. محمد صقر خفاجة

الكتاب: قصص من دانتي

الكاتب: أ. هـ. بِج وِزَرْ

ترجمة: أمين حسان

مراجعة: د. مُحَمَّد صقر خفاجة

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

وِزَرْ ، أ. هـ. بِج

قصص من دانتي/ أ. هـ. بِج وِزَرْ, ترجمة: أمين حسان ، مراجعة: د. مُحَمَّد صقر خفاجة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ٣٩٢ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٥٧٧٧ / ٢٠٢١

قصص من دانتي

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

تعتبر الكوميديا الإلهية أروع قصيدة في الشعر الإيطالي قديمه وحديثه[١]، ترجمت وما زالت تترجم إلى أهم لغات العالم. والكتاب الذي ترجمه الأستاذ أمين حسان موجز شامل لهذه الدرة الخالدة، ضمنه مؤلفه "وذربج" كثيرًا من قصص الجحيم والمطهر والفردوس التي تعبر عن فلسفة الشاعر، وتصور الحياة في عصره تصويرًا دقيقا. والكتاب يمتاز بوضوح الأسلوب وبراعة العرض، فهو لا يحرمنا، مع صغر حجمه، من معرفة أفكار دانتي الرئيسية التي تتلخص في أن الشاعر الإيطالي يتخذ من نفسه رمزًا للإنسان، فتراه يضرب في "وادي الحياة"، ويهيم على وجهه، يفكر في أمور دنياه، ويعجب من مجيئه إلى هذه الدنيا، ويحاول الخروج منها، ثم يدرك أنه لن ينجو من هذا الوادي المخيف، إلا إذا صعد الجبل المشرق حتى يبلغ السعادة النهائية. وبعد ذلك يتبين أن الطريق إليها محفوف بالمخاطر، وأن السير فيه يحتاج إلى مجهودٍ مضن ومقاومة عنيفة لصنوف الإغراء. فكان على دانتي أن يتحلى بالفضائل الحميدة، ويتخلى عن الرذائل البغيضة ويحكم العقل ليحقق لنفسه السعادة القصوى لذلك اتخذ من فرجيل مرشدًا يصاحبه في رحلته إلى الجحيم، لأنه كان يعتبره رمزًا للحكمة والمعرفة، ولأن الشاعر الروماني سبق أن زار العالم الآخر وطاف بأرجائه[٢].

(١) الكوميديا الإلهية: ترجمة هـ. ف. كيري (H.F. Cary) لندن ١٩١٠ ص٧.

(٢) وصفه وصفًا مسهبًا رائعًا في النشيد السادس من الإنياذة.

وإذا ما تصفح القارئ وصف الأخطار التي واجهت دانتي وأستاذه، شعر بأنه يستمع إلى عبارات دانتي المؤثرة، وحكمه المأثورة، وأحس بأنه ماثل أمام عينيه، محدثه عن الشر وينفره منه، ويصور له الخير ويحببه إليه، ولا أدلَّ على عظمة دانتي وعبقريته، من أنه ما زال يحرك مشاعرنا، ويستولي عليها، مع أننا نعيش في عصرٍ بعيدٍ عن عصره ويختلف عنه في كل شيء، ومع ذلك فنحن نبكي لبكائه ونثور لثورته ونرضى لرضاه، وسبب ذلك أن شعره صدر عن عاطفةٍ قويةٍ صادقةٍ ونبع من قلبٍ يجيش بحبٍّ مثالي خالص، كان صاحبه يسعد بنظرةٍ من بياتريشي، ويشقى إذا تجاهلته، فلما ماتت جن جنونه، وزهد في الدنيا وأعرض عنها إعراضًا تامًّا، ثم حاول أن ينسى أحزانه فانصرف لنظم الشعر ليمجد ذكراها ويخلِّد اسمها، ولم يكتف الشاعر بوصف حبه والتغني بمعبودته، ولكنه صوَّر الحياة السياسية والدينية والاجتماعية في العصر الذي عاش فيه.

فكتب "الجحيم" وتحدث فيه عن الغضب الشديد والكره المميت نحو خصومه الذين حكموا عليه بالنفي، وحالوا بينه وبين العودة إلى وطنه العزيز، ثم نظم المطهر في أبياتٍ رقيقة، بعد أن سمت روحه وتحررت من الخطيئة، وركنت إلى الدين تتلمس فيه الهدوء والطمأنينة وانتهت أيام بؤسه، وهدأت نفسه هدوءًا تامًّا، عندما نزل ضيفًا عزيزًا على حاكم رافنا، الذي رحب به وأكرم وفادته حتى آخر أيامه.

ولسنا في حاجةٍ إلى القول بأن اطلاع دانتي الواسع، وثقافته الغزيرة تعزى إلى تلاوة أعلام الفكر اليوناني واللاتيني، واهتمامه بدراسة أعمالهم وتأثره بهم، فقصيدته تفيض بإشاراتٍ عديدةٍ إليهم، وتتحدث عن كثيرٍ من

الأساطير التي عالجوها والشخصيات التي صوَّروها.

لذلك رأينا أن نضيف في آخر الكتاب، بعض الهوامش والتعليقات لتوضح أهمية هؤلاء الأدباء، وتشرح تلك الإشارات وتذكر ما تجب معرفته لقراءة الترجمة دون الرجوع إلى مصادر أخرى.

ولسنا بحاجةٍ إلى أن نشير إلى أن دانتي في هذا الكتاب يمثل الديانة المسيحية وحدها.

ونحن نرى أن الأستاذ أمين حسان كان موفقًا في اختيار هذا الكتاب، ونقله إلى العربية، لما فيه من معانٍ سامية، ومُثُل عليا ما أحوجنا إلى التمسك بها، ما دمنا نهدف إلى إصلاحٍ شامل، وخلق جيلٍ جديد، ولقد وُفِّقَ أيضًا في ترجمة النص الإنجليزي ترجمةً أمينةً كتبها بأسلوبٍ طلي واضح.

فنرجو لكتابه الانتشار الذي يستحقه، وفقه الله وإيانا إلى إغناء المكتبة العربية بما تحتاج إليه من كتبٍ في ميادين المعرفة المختلفة.

المراجع

مقدمة

(١)

دانتي اليجييري والكوميديا الإلهية

قصص هذا الكتاب مأخوذة عن "الكوميديا الإلهية"، تلك الملحمة العظيمة التي نظمها "دانتي اليجييرى" شاعر إيطاليا. وكثير من أجزاء هذه القصيدة في لغتها الأصلية صعبة جدًّا، وتشير إلى حوادث وأشخاص كانوا مشهورين، في ذلك الوقت، وأصبحوا غير معروفين لقراء العصر الحديث، لذلك لا تستطيع هذه القصص أن تعطي للقارئ أكثر من فكرة موجزة مبسطة عن الكوميديا الإلهية.

ولد دانتي في فلورنسا عام ١٢٦٥، وعاش في فترةٍ من أشد فترات التاريخ الإيطالي اضطرابًا، ونحن لا نعرف الكثير عن طفولته أو شبابه، ومن المحتمل أن بعض القصص التي تدور حوله، ليست إلا أساطير من نسج الخيال. غير أن دانتي نفسه تحدثنا أنه لما بلغ التاسعة من عمره، تأثر تأثرًا عميقًا، عندما وقعت عيناه للمرة الأولى على فتاةٍ من جيرانه في مثل سنه، وأنه أحبها فيما بعد، ولكننا نجهل كل شيءٍ عن هذه الفتاة، بل يذهب بعض الباحثين إلى القول بأنها لم تكن شخصية حقيقية، وإنما كانت مثلًا أعلى، ابتكره خيال دانتي.

وأغلب الظن أنها "بياتريشي بورتيناري **Beatrice Portinari**" ابنة جارٍ ثرى لأسرة دانتي، إلا أن ذلك لا يعنينا كثيرًا، ما دام دانتي يخبرنا بكل ما نريد عنها، ويشير إليها دائمًا باسم بياتريشي فقط.

قابلها دانتي للمرة الثانية عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره، فوقع تحت تأثير سحرها، غير أنه لم يقدر لهذا الحب أن يأخذ مجراه الطبيعي، فمن المحتمل أن تكون عائلته، قد فكرت في زواجه من سيدةٍ أخرى. ومع أن دانتي لم ير بياتريشي إلا نادرًا لكنها أثرت في حياته كلها، وأصبحت في نظره مثلًا أعلى للمرأة الكاملة، بل رمزا للكمال والفضيلة في الحياة الدنيا. وكان في ولائه وإخلاصه لها يشبه فرسان العصور الوسطى، الذين كان الفارس منهم يكرِّس حياته لخدمة سيدة واحدة، ويمارس ضروب الشجاعة من أجلها. ولكن بياتريشي في نظر دانتي كانت أجمل وأعظم من مجرد سيدة، بل أضحت بمرور الزمن مثله الأعلى للفضيلة في أروع صورها، وأصبح يعتقد أنه لو أمكنه أن يعيش ما تريده هي أن يعيش، لغدا –يومًا ما– أهلًا لجنات النعيم.

ولقد ماتت بياتريشي في عام ١٢٩٠ ميلادية، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها؛ ويحدثنا دانتي أنه قد رأى حلمًا مزعجًا أنذره بموتها..

ورغم أن دانتي عاش سنين طويلة بعدها، فقد بقي إخلاصه لذكراها يزداد مع الزمن، وأصبحت بالنسبة له كالملاك، يتخيلها كما نرى في الكوميديا الإلهية، بين القديسات، قريبة جدًّا من الله.

وربما كانت حياة دانتي في شبابه –فيما نعلم– نموذجًا لشباب الطبقة الغنية في ذلك الوقت؛ فلا بد أنه قام برحلاتٍ للصيد والقنص في ريف

فلورنسا، وراقص فتياتها، وشاهد أعياد الربيع؛ ولا بد أنه كان مطالبًا بتأدية بعض التدريبات العسكرية... ومعروف أنه بدأ ينظم الشعر قبل أن يتجاوز سن الصبا.

وكان دانتي في الخامسة والعشرين من عمره، عندما ماتت بياتريشي، فحزن عليها حزنًا بالغًا، وكرَّس نفسه للدراسة والقراءة، وانكب على التفكير العميق ليروّح عن نفسه. ولم يلبث طويلًا حتى بدأ يهتم بالأمور السياسة في فلورنسا مسقط رأسه. ولو قرأت أيها القارئ الكريم عن فلورنسا في زمن دانتي... لعرفت أن شعبها كان ينقسم إلى ما نسميه اليوم بالأحزاب السياسية... وكان الصراع على أشده بين هذه الأحزاب عندما تولى دانتي منصبًا هامًّا في الحزب الذي كان يعرف بالجولف البيض White Guelphs، ولقد أظهر الشاعر نشاطًا جمًّا في الدفاع عن قضية هذا الحزب، حتى كرهه أعضاء الحزب المعارض المسمى بالجولف السود Black Guelphs، ولذلك دبروا له تهمةً وقدموه للمحاكمة عندما تولوا زمام السلطة في فلورنسا عام ١٣٠٢. وأغلب الظن أن دانتي حينذاك كان غائبًا عن فلورنسا، في مهمةٍ سياسيةٍ بروما، فلم يكن في استطاعته الحضور لمواجهة التهمة الملفقة المنسوبة إليه، فصدر الحكم بإعدامه إذا عاد يومًا ما إلى فلورنسا.

وهكذا أصبح دانتي منفيًّا، وقضى حياته متنقلًا في ربوع إيطاليا من مكانٍ إلى مكان، يستضيفه النبلاء في قصورهم إلى أن وافاه القدر المحتوم في رافنا Ravenna عام ١٣٢١ ومات دون أن يرى فلورنسا، وطنه الحبيب، مرةً أخرى.

ويمكننا أن نتصور شدة الألم الذي يعانيه من حياة التشرد والتجوال رجل حر في تفكيره، يعتد بكرامته مثل دانتي؛ فكثير من فقرات الكوميديا الإلهية، تصف مرارة النفي الذي تعرض له، ويتضح لنا بوجهٍ خاص من قصته التي يروي فيها مقابلته في الجنة لجده "كاتشا جويدا **Cacciaguida** أنه كان حفلورنسا حبًّا شديدًا، والحب الزائد إذا ما أُسيء إليه، كثيرًا ما ينقلب إلى بغضٍ مرير.

لذا نرى دانتي يصب اللعنات على أهل فلورنسا، الذين حكموا عليه بالنفي دون ما ذنبٍ جناه، وجعلوا من فلورنسا تلك المدينة الجميلة الحادثة مقرًّا للحزبية، ففقدت منزلتها وأصبحت مرتعًا للظلم، حيث يشك المواطن في جيرانه.

لقد بدأ دانتي الكتابة في شبابه. ولقد وصلنا كثير من مؤلفاته شعرًا ونثرًا، لكن شهرته الحقيقية تعزى، أولًا وقبل كل شيء، إلى "الكوميديا الإلهية".

وقد يبدو لنا عنوان هذه القصيدة غريبًا بعد تلاوتها، ولكن في عصر دانتي، كان كل كتابٍ ينتهي بنهايةٍ سعيدة يسمى كوميديا، حتى ولو تضمن كثيرًا من المآسي..

ونحن لا نعرف بالتحديد، متى بدأ دانتي، نظم الكوميديا الإلهية، ولكن من المحتمل أنه كتبتها كلها في منفاه.. إنها قصة رحلة دانتي نفسه إلى الجحيم، حيث كان شاعر الروماني "فرجيل **Virgil**"، مرشدًا له، إنها قصة رحلته إلى الجنة. حيث كانت بياتريشي دليله، ويقابل دانتي في تجواله كثيرًا من أرواح الموتى ويتحدث إليهم، وكان بعضهم من أصدقائه في الدنيا،

والبعض الآخر من الشخصيات البارزة في التاريخ أو الأساطير.

لا شك أن هذه الرحلة كانت خيالية، ولكن دانتي لم يصنعها لمجرد الرواية فحسب، ولكن يمكن أن نعدها حلمًا صوره دانتي لينقذ الأحياء من الشقاء (أي الخطيئة)، ويهديهم إلى السعادة (أي الفضيلة).

وعلى ذلك نستطيع أن نقرأ هذه القصيدة من زاويتين على الأقل: نتلوها على أنها أولًا قصة تحدثنا عن زيارة شاعر فلورنسا في العصور الوسطى لتلك المناطق الأزلية؛ وثانيًا على أنها تصوير رمزي للحياة الإنسانية التي يمثلها دانتي يقوده العقل (فرجيل) ليرى قبح الخطيئة وعقابها، ويبلغ أسمى مراتب الحياة الدنيا (في الفردوس الأرضي)، وكما أن المرء لا يستطيع أن يخطو خطوةً إلا بإذن الله وفضله، كذلك تتجلى بياتريشي (وحيًا سماويًّا ونعمة من عند الله) لترشده إلى الفردوس الحقيقي.

وقبل أن يغادر فلورنسا، قضى دانتي فترةً من حياته لم يعمل فيها شيئًا جديًّا، ونحن لا نعلم عن هذه الفترة ما يستحق الذكر إلا إغفال الشاعر لهمته الحقيقية، بياتريشي، وامتناعه عن ذكرها، وهو يشير إلى تلك الفترة بقوله: "إنه ضل طريقه في غابةٍ ظلماء. لأن الغابة تصور حالة الخطيئة والندم، وإنه أنقذ منها عندما قام بالرحلة التي تصف لنا، الكوميديا الإلهية تفاصيلها.

ويمكننا أيضًا أن نجد معنى رمزيًّا، لكل من قابلهم دانتي تقريبًا في رحلته، فيما عدا أرواح الموتى.. ولكن يكفينا أولًا أن نقرأ القصيدة على أنها قصة فحسب.

لقد عاش "دانتي" قبل اكتشافات، كريستوفر كولمبس فعرف من العالم

نصفه تقريبًا، وكان يعتقد أن الماء يغمر النصف الجنوبي من الأرض، وأن جبل "المطهر"، كان يقع في منتصف هذا المحيط الواسع المجهول قبالة مدينة "أورشليم" المقدسة، فنراه يهبط إلى "الجحيم" ويصفه بأنه هوة سحيقة مخروطية الشكل تمتد في أعماق الأرض تحت العالم الدنيوي، وينزل مع فرجيل إلى قاع هذه الهوة، حيث يجد لوسيفر Lucifer، ثم يخترق مع مرافقه مركز الكرة الأرضية، ويبلغان الجانب الآخر الذي يقع على شواطئ "المطهر".

وكان عالمنا في نظر دانتي هو محور الارتكاز للكون، ويصف الجنة بأنها تسع طبقات تدور حول هذا العالم، وكل طبقةٍ تحيط بأخرى أصغر منها، وتوجد فوقها وحولها جميعًا سماء عليين، أو الفردوس الحقيقي- وهو لا نهائي ولا حدود له.

ولا يحدثنا دانتي بشيءٍ عن عودته إلى الأرض، ولكن علينا أن نتصوره بعد أن سمح له برؤية "الثالوث المقدس" الذي يختتم به قصيدته الكبرى عائدًا إلى الأرض ليحيى حياة رجلٍ عادي، ويدوِّن مشاهداته لعل الناس يطلعون عليها، فتساعدهم على أن يعيشوا عيشةً أفضل، وبذلك يفوزون بمكانٍ في جنة الخلد.

لقد تعددت الروايات حول الفترة الأخيرة من حياة دانتي، بعد أن أكسبته كتاباته شهرةً فائقة، ويروي أنه عندما كان يتريض في الحقول، كان الفلاحون يشيرون إليه ويقولون لأطفالهم: "هذا هو الرجل الذي جاس خلال الجحيم، انظروا.. إن دخانها يعلو وجهه!".

ولا تزال "الكوميديا الإلهية" أروع قصيدة شعرية في اللغة الإيطالية،

يحفظ الأطفال أجزاءً منها في المدارس؛ ويهتم بدراستها معظم الباحثين ويعشقون تلاوتها.

وغالبًا ما يُلقَّب دانتي "بعميد الأدب الإيطالي" لا لأنه أعظم الشعراء الإيطاليين فحسب، بل لأن الكوميديا الإلهية، كانت أول وأروع ملحمة شعرية نظمت باللغة الإيطالية. فقبل مولد "دانتي" لم يكن للأدب الإيطالي أي وجودٍ تقريبًا، وكان كافة المتعلمين يجيدون اللغة اللاتينية، ومع أن اللهجات الإيطالية المختلفة كانت تُستَعْمَل في محادثات الحياة اليومية، إلا أن اللاتينية كانت تعد لغة التعبير في المسائل الهامة كلها، وقلَّما كانت تعتبر اللغة الإيطالية لغة جديرة، بأن تُستعمَل في الأدب.

غير أنه في أوائل القرن الثالث عشر، بدأ جماعة من الشعراء في جنوب إيطاليا، ينظمون قصائدهم بالإيطالية، وأدرك الناس بمرور الزمن، أن اللهجات التي كانوا يتكلمون بها في منازلهم، يمكن استعمالها أيضًا في الأعمال الأدبية، وبدأ الكتاب محاولاتهم، لكنهم أول الأمر وجدوا صعوبةً كبيرةً في استعمالها، وساد شعور شامل بأنها معدومة الأهمية إذا ما قورنت باللغة اللاتينية، فهي لغة النساء والأطفال وغير المتعلمين في منازلهم؛ أما اللاتينية فهي لغة عريقة، تناسب شعائر الكنيسة وحفلات القصور، وساحات القضاء.

وكان لا بد من ظهور أثرٍ أدبي عظيم باللغة الإيطالية، ليقنع الناس جميعًا بأنه في الإمكان كتابة روائع أدبية بها. فجاء دانتي ونظَّم بها "الكوميديا الإلهية"، فرفعها إلى مصاف اللغات بالمعنى الصحيح. ويجدر بنا القول بأن الأدب

الإيطالي بدأ فعلًا بدانتي، وهذا ما يزيد في أهمية إنتاجه الشعري.

ويجب ألا يغيب عن البال، أن آراء دانتي عن الأرواح التي يقابلها إنما هي آراء خاصة به– قد لا يقره عليها أهل زمانه، فهو قاس غير متردد في حكمه على الخطيئة، ولكنه شجاع منصف، لا يخاف من إنزال عددٍ من الباباوات إلى الجحيم، ولا يتردد في الحكم على أعز أصدقائه بالعقاب المؤبد، إذا ما اقتضت العدالة ذلك؛ بل ويكفِّر عن خطاياه في قسوةٍ بالغة. ومع أنه سيذهب إلى الجنة فهو لا يعزو ذلك إلى فضلٍ له، ولكن إلى نعمة الله عليه ورحمته.

تصور "الكوميديا الإلهية" كل ما يتعلق بالحياة الكاثوليكية والفكرية في العصور الوسطى، وقد بلغت القصيدة الأصلية درجةً من الروعة والجمال لا يمكن التعبير عنها بأية ترجمة. فهي تضم قصصًا مشوقة، وصورًا لا حصر لها عن معيشة الناس وطرق تفكيرهم أيام دانتي. فإذا قرأناها –ولو مترجمة– خرجنا بفكرةٍ واضحةٍ كل الوضوح، عن الحياة الإيطالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

وما القصص التالية إلا ملخص شامل لهذه الملحمة.

ا. هـ. بيج. ويزر

١٩٣٦

(٢)

فلورنسا في عصر دانتي

لم تكن إيطاليا في عهد دانتي دولة موحدة، يحكمها حاكم واحد كما هي الآن، بل كانت تنقسم إلى عدة دويلاتٍ تختلف في مساحتها، ومع أنها كانت تعترف بالسيادة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، لكنها كانت مستقلةً بالفعل وإن تفاوت هذا الاستقلال في درجته. وكان كثير منها "دولًا" أو مدراء تتمتع بالحكم الذاتي، ولا تزيد مساحتها كثيرًا على مساحة المدينة التي سميت باسمها.

وكانت معظم الأراضي في قبضة الأشراف الإقطاعيين، ثم أخذت هذه المدن تتحرر شيئًا فشيئًا من سيطرة هؤلاء النبلاء.

وكانت هناك عداوات ومنافسات دائمة بين تلك الدويلات: فأثرت بعضها عن طريق التجارة، لوقوعها على نهرٍ صالحٍ للملاحة أو على طريقٍ هام، وبعضها كان لقمة سائغة في يد المدن القوية المجاورة، والبعض الآخر انتعشت حاله، واتسعت رقعته، بعد ضم مساحاتٍ من أراضي طبقة الأرستقراطية الإقطاعية.

ولم تقع المنازعات والحروب خارج الولايات فحسب، بل اتسعت رقعة الخلافات داخل المدن نفسها، في منتصف القرن الثالث عشر، حتى أصبحت الحياة الوادعة المستقرة ضربًا من ضروب المستحيل، وسقط كثير من صفوة شباب إيطاليا في كل مدينة، بسبب الخلافات الداخلية أو الحروب ضد أعداء المدينة، واتسعت رقعة الخلاف والعداوة بين الأسر

القوية داخل الولاية الواحدة، وزاد نفوذ طبقة التجار الأثرياء، فاستنكرت الأرستقراطية العريقة تحكم هذه الطبقة في إدارة الولاية.

وكان الخلاف الذي استحكم بين ألمانيا والإمبراطور، أخطر خلافٍ أثَّر في إيطاليا كلها؛ فلم يقنع الباباوات في تلك الأيام بسلطتهم الروحية، بل طالبوا كذلك بالسلطة الزمنية، فأقحموا أنفسهم في منازعات أوروبا السياسية، وأعدوا الجيوش لتدافع عنهم.

ونظرًا لاتساع رقعة الأقاليم التي كان يحكمها الإمبراطور؛ تعارضت مصالحه مع مصالح البابا، وانقسم أمراء أوروبا قسمين، فتحالف بعضهم مع الإمبراطور وعقد معه معاهداتٍ سياسية، وتحالف البعض الآخر مع البابا.

وأصبح الصراع عنيفًا في إيطاليا عندما قام حزب "الجبلين Ghibellines" –وكانت غالبيته من الطبقة الأرستقراطية العريقة– بتأييد الإمبراطور والدفاع عن مصالحه، بينما تصدى لهم حزب "الجولف" –وكان يتكون من الأغنياء والتجار– وانضم إلى البابا. وسعى كل فريقٍ إلى توثيق علاقاته مع أمراء أوروبا الأقوياء، ووقعت المعارك الدامية، بل وانقسم المواطنون على أنفسهم في المقاطعات الصغيرة: هؤلاء يعاضدون البابا، وأولئك يشايعون الإمبراطور.

وتعد جمهورية فلورنسا نموذجًا صادقًا للولايات الإيطالية في العصور الوسطى، ومع أنها كانت بحكم التقليد موطنًا لحزب "الجولف" الذي يناصر القضية الباباوية، فإنها لم تخل من أعضاءٍ من حزب "الجبلين" كانوا يفوزون

بمقاليد الحكم أحيانًا.

ولقد ولد دانتي في فترةٍ من فترات حكم "الجبلين"، ولكنهم بعد مولده بسنةٍ واحدة طُردوا من فلورنسا عام ١٢٦٦؛ وتقلد حزب "الجولف" مقاليد الحكم، غير أن هذا التغيير لم يؤد إلى نشر السلام، إذ انقسم حزب الجولف نفسه إلى قسمين: الجولف السود، والبيض، وتنازع الفريقان ووقعت بينهما معارك عنيفة لم يسبق لها مثيل.

وفي عام ١٢٨٢ أصبح حكم فلورنسا في يد نقابات التجار وأصحاب الحرف، يشترك معهم عدد من الضباط، كانوا ينتخبون ليمثلوا المصالح الأخرى، ويرسوا قواعد العدالة.

وعمَّ فلورنسا الرخاء، فذاع صيت تجارها ورجال المال فيها، واشتهروا في جميع أنحاء العالم. ولما ازدهرت التجارة وزادت الأرباح، تعقدت الحياة في المدينة، وظهرت فيها عادات غريبة واتجاهات جديدة، وأصبح المال يُنفَق على الكماليات في بعض أحيائها بإسرافٍ شديدٍ وأضحى التعطش إلى جمع المال والفاقة، يسير جنبًا إلى جنبٍ مع التنافس المتزايد، وعدم الاستقرار بين المواطنين.

وأراد "الجولف السود" قلب نظام الحكم وإخضاع فلورنسا لسلطة البابا مباشرةً، بينما كان ينادي "البيض" بتأييد البابا مع الاحتفاظ باستقلال المدينة، ومقاومة أي نفوذٍ أجنبي. وكان دانتي ينتمي إلى الحزب الأخير، وعندما تقرا الحديث الذي دار بينه وبين جده "كاتشايدا Cacciaguida في "الكوميديا الإلهية"، تعرف رأيه في التغيير، الذي طرأ

على حياة الفلورنسيين وطريقة معيشتهم.

وفي عام ١٢٩٤ انتخبت بونيفاس الثامن بابا، وكان طَموحًا إلى السلطة، تواقًّا إلى فرض سلطانه على جمهورية فلورنسا، ولو أدى ذلك إلى استخدم القوة، وقد آزره "السود" في تحقيق أغراضه، بينما استمات "البيض" في مقاومته للاحتفاظ باستقلالهم، وتتابعت المؤامرات. ثم نشب القتال داخل المدينة، وعمَّ السلب والنهب؛ وقامت المذابح وآلت السلطة في النهاية إلى "السود" بمساعدة خونة من الخارج، فطردوا "البيض" من فلورنسا.

وكان دانتي من الذين حُكِمَ عليهم بالنفي؛ وطالما أشار في "الكوميديا الإلهية" إلى هذه الأيام المضطربة من حياة فلورنسا. وتألم كثيرًا لما كان يجري فيها من مشاحناتٍ وانقسامات.. ولقد اتسعت آفاق "دانتي" خلال السنوات الطويلة التي قضاها في النفي، وأدرك أن فلورنسا لم تكن وحدها موطن الاضطرابات والمذابح..

وهكذا بدأ "دانتي، يعتقد أن الكثير من مصائب إيطاليا، ترجع إلى جشع الباباوات وزعماء الكنيسة الكاثوليكية، الذي كان يجب عليهم –في رأيه– الابتعاد عن الأطماع الدنيوية، وترك السياسية لغيرهم، وتكريس أنفسهم لشئون الدين فقط؛ وهذا يفسر لنا اللعنات التي يصبها "دانتي" على الفساد الذي شمل الكنيسة، لأنه كان يعتقد بوجود فرقٍ بين مصالح البابا ومصالح الإمبراطور، ويرى أن البابا لا يجوز أن يكون أميرًا عظيمًا يحكم أراضٍ مترامية الأطراف، بل خليفة لله يسيطر على عقول البشر، كما

يجب على القساوسة والرهبان أن يزهدوا في الذهب والفضة وأن يحذوا حذو القديس "فرانسيس" الذي قضى حياته فقيرًا متواضعًا.

وعاد دانتي بذاكرته إلى الوراء واستعرض، في شوقٍ وحنين "فلورنسا" في ماضيها البعيد، عندما كانت مدينة صغيرة تحيط بها الأسوار، يسودها السلام ويتمتع أهلها بحياةٍ بسيطةٍ آمنة، ولكن، وا أسفاه، لقد عمَّت الفوضى، وسادت الاضطرابات، ولم تعد فلورنسا تلك المدينة الصغيرة التي كانت تعيش في صفاءٍ وهدوءٍ وسلامٍ كما عرفها كاتشيا جويدا.

ا. هـ. بيج ويزر

١٩٣٦

الجحيم

١- دانتي يضل طريقه في غابة مظلمة ينقذه منها فرجيل

عندما بلغ الشاعر الفلورنسي دانتي الخامسة والثلاثين من عمره، وجد نفسه يضرب على غير هدى في غابة مظلمة، وكان الوقت ليلًا وبدا له ألا سبيل للخلاص من هذه الغابة المخيفة الموحشة، فتملكه رعب مخيف، واستولى عليه بأس مميت، حتى إنه لم يعد يذكر تمامًا كيف قُدِّرَ له أن يدخل هذه الغابة.

وظل يهيم على وجهه وقتا طويلًا، وأخيرًا وجد نفسه على سفح تل، فرفع بصره ورأى أشعة الشمس الذهبية تكلل قمته. وعندئذ تضاءلت مخاوفه، فألقي بنفسه على الأرض طلبًا للراحة، ونظر خلفه، إلى تلك الغابة التي ما زال يكتنفها الظلام. وبعد أن استراح قليلًا، همَّ بالصعود إلى قمة التل، ولم يكد يخطو بعيدًا، حتى اعترض طريقه فهد أرقط، فعاودته مخاوفه خشية أن يفسد عليه ذلك الفهد سبيل الخروج من محنته.

ثم أشرف النهار، وكان ذلك في يومٍ من أيام الربيع، فلم يستسلم دانتي لليأس تمامًا، بل تابع طريقه وإذا به أمام وحشين آخرين، يتقدمان نحوه: أسد أثار الجوع ثائرته فتهيأ للوثوب، وذئبة مخيفة متوحشة ملأت قلبه خوفًا وهلعًا، ففقد كل أملٍ في صعود التل، لأنها اندفعت نحوه واضطرته إلى التراجع رويدًا رويدًا، ثم أجبرته على النزول عدوًا، كما لو كان في سباق. وعاوده الفزع عندما وجد نفسه يقترب مرةً أخرى، من تلك الغابة المظلمة الموحشة في الوادي.

وبينما كان دانتي يجد في الهرب، رأى شبحًا معتمًا يظهر أمامه فجأةً،

فصاح مستغيثًا "أشفق عليَّ يا هذا"، وارث لبؤسي سواءً أكنت شبحًا أم بشرًا سويًّا".

فرد عليه الشبح قائلًا:

لقد كنت فيما مضى إنسانًا، ولدت في مانتوا[٣]، وعشت في روما أيام أوغسطس[٤] العظيم، زمن الآلهة الكاذبين المزيفين. أنا فرجيل الشاعر تغنيت بمحاسن إينياس[٥]، الذي نزح من طروادة العظيمة بعد حرقها؛ ولكن لِمَ تندفع هكذا نحو وادي الأحزان؟ ولِمَ لا تتسلق هذا التل المشرق الجميل؟

ووقف دانتي أمام الشبح في احترامٍ وسرورٍ وقال:

أأنت فرجيل حقًّا؟ فخر الشعراء ونبراسهم المضيء؟ لقد كنت لي خير معلم، وطالما درست أشعارك، فليت حبي لك ينفع الآن.

أيها الحكيم، ساعدني على الهرب من هذا الوحش الكاسر الذي يملؤني فزعًا ورعبًا، ويحول بيني وبين الصعود إلى التل.

فأجابه فرجيل قائلًا:

"عليك أن تسلك طريقًا آخر، إذا ما أردت أن تنجو بنفسك من هذا المكان الموحش الرهيب. إن هذه الذئبة المفترسة لا تدع إنسانًا قط يمر أمامها.. لقد افترست عددًا غفيرًا من الناس، وسوف تفترس كثيرين غيرهم،

---

(٣) Mntu

(٤) Augustus

(٥) Aeneas

قبل أن يتخلص العالم من شرها؛ لذلك أرى أن خير طريقٍ لنجاتك هو أن تتبعني، وسوف أرشدك عبر الطبقات الأبدية.

سنمضي أولًا إلى مكانٍ يفيض بحزنٍ لا نهائي، تلقى فيه كثير من الأرواح عذابًا متصلًا، وتستغيث للخلاص منه. ثم تري طبقة أعدت لعذاب هؤلاء الذين يقاسون الآلام، وهم راضون لأنهم يعلمون أنهم سيكونون في النهاية مع الأبرار. ولو شئت بعد ذلك صعدت إلى دار النعيم المقيم، والسلام الأبدي، وسوف يرافقك إلى هذا المكان مرشد أجدر مني لأنني ممنوع من الدخول فيه".

فأجابه دانتي فرحًا:

أيها الشاعر، أستحلفك بالله الذي لم تعرفه قط أن تكون مرشدي في مثل هذه الرحلة، وأن تقودني عبر طبقات الأحزان، حتى بوابة القديس الأكبر "بطرس" لكي أنجو من هذا المكان الموبوء، ولكي ينجو غيرى كذلك.

وبدأ الشاعران رحلتهما الطويلة، فسار فرجيل في المقدمة وتبعه دانتي. ولما بدأ الليل يرخي سدوله أخذ دانتي يفكر في الأحوال التي تنتظره، فاضطرب تفكيره، ونظر إلى فرجيل وسأله لتطمئن نفسه فقال:

"أي مرشدي، أواثق أيها الشاعر من أنني جدير حقًّا بدخول عالم الخلود، وأنا على قيد الحياة؟ لقد قام قليل من الأحياء بهذه الرحلة؛ فكتبت أنت أن إينياس قد ذهب هناك، ولكن من إينياس نبتت أصول روما العظيمة، وهناك أيضًا ذهب أحد الرسل ولكن الله هو الذي اصطفاه،

أما أنا فلست إينياس ولا هذا الرسول، وليس لي من المزايا ما يجعلني أهلًا للقيام بهذه الرحلة، أو ليس من الحماقة إذن أن أقدم عليها؟

وعندئذ عبس فرجيل ثم قال:

يبدو لي أن الجبن قد حطم روحك، إن انحطاط النفس غالبًا ما يعوق المرء عن القيام بجليل الأعمال، وسوف أقص عليك سبب حضوري لأحرسك من مخاوفك. لقد كنت بين الأرواح التي تقيم على الدوام في لمبو limbo بلا أمل، وإذا بسيدةٍ بارَّة تناديني، كانت عيناها أشد لمعانًا من بريق النجوم. ثم تحدثت إليَّ بصوتٍ عذبٍ رقيقٍ وقالت:

"يا روح ابن مانتوا الوديع، يا من طبقت شهرته الآفاق. أنا بياتريشي، دفعني الحب أن أتحدث إليك وأطلب معونتك. لقد حضرت إليك من مكانٍ مقدسٍ أتوق إلى العودة إليه، ولكن لي حبيب لا يزال حيًّا ضلَّ طريقه في بقعةٍ منعزلةٍ مخيفة، وهو في حاجةٍ إلى من يساعده وينقذه منها. ولقد أرسلت إليَّ سيدة فاضلة من الجنة كلمةً تصف حاله وتصور مشاعره: إنه كان يحبني حبًّا خالصًا، لذا أبكي لحزنه. فأسرع يا فرجيل وهوِّن عليه، وخفف من لوعته، وامدد يدك إليه. فهذه مشيئة الله".

فلما أخبرتني بياتريشى بذلك جئت وأنقذتك من ذلك الحيوان المفترس، بعد أن حال بينك وبين الصعود إلى التل المشرق، ففيم الخوف إذن؟ لقد كتبت لك هذه الرحلة في السماء، ولن يمنعك من إتمامها سوى ترددك. فيجب أن تكون حرًّا شجاعًا ما دامت هذه السيدة ترعاك".

مع صقيع الليل تميل الأزهار الصغيرة، وتغمض عيونها، فإذا ما أصبح

الصبح، وأشرقت الشمس، اعتدل قوامها وتفتحت أكمامها.

هكذا كانت حال دانتي فعندما سمع كلمات فرجيل ذهب عنه الخوف وتمالك شجاعته؛ ثم قال له وكأنه سجين أطلق سراحه:

"إنني الآن أشعر حقًّا بالشجاعة والعزم، وأشكر بياتريشي شكرًا جزيلًا لما أسبغته عليَّ من عطف، وأشكرك على رقتك، فهيا بنا تحدونا رغبة واحدة، فأنت سيدي وأستاذي ومرشدي".

وهكذا بدأ الاثنان رحلتهما الطويلة الشاقة في أعماق الجحيم، وفوق جبل المطهر، وفي جنات النعيم.

٢- دانتي يعبر نهر الآخرون(٦) ويصل إلى لمبو(٧) (عالم الأرواح الضالة)

بعد أن سار الشاعران مسافةً قصيرةً في طريقهما، شاهدا بوابةً كبيرةً أمامهما نقشت فوقها هذه الكلمات:

"أنا الطريق الممتد إلى مدينة الأحزان والآلام الأبدية؛ المؤدي إلى عالم الضالين. أقامتني القوة والحكمة والمحبة، ودفعت العدالة صانعي العظيم إلى إنشائي، ولم يخلق قبلي سوى الكائنات الخالدة، وسوف أخلد مع الزمن. أيها الوافدون هنا، ادخلوا هذا المكان، واتركوا الأمل جانبًا".

ووقف دانتي برهةً يتأمل هذه النقوش ثم التفت إلى فرجيل قائلًا: "سيدى، إن هذه الكلمات القاسية ترعبني".

---

(٦) Acheron الآخرون: كلمة يونانية ترمز إلى نهرٍ في العالم الآخر.

(٧) Limbo

أما فرجيل فكان يعرف الطريق الذي كان عليهما أن يسلكاه. لذا أجابه قائلًا:

"لا محل هنا للخوف، تذرع بالشجاعة، فقد وصلنا هنا حيث يقيم المساكين الذين سيظلون دائمًا بلا عقلٍ وبلا إدراك".

ثم أخذ بيد دانتي وشجعه، ودخل معه البوابة إلى العالم الذي يختفي وراءها.

كان الجو معتمًا من حوله، وكانت الزفرات والعبرات والأنات العميقة، تدوي خلال حجب الظلام، وكانت آهات الحزن تسمع، وقد اختلطت بأصوات الضرب والمشاجرات.

ووقف دانتي أمام هذا المشهد الرهيب مأخوذًا، وقال لفرجيل:

"ما هذا الذي أسمع يا سيدي، ومن هؤلاء الذين غمرهم الأسى، فيما يبدو؟".

فأجابه فرجيل قائلًا:

"إنهم البؤساء الذين أعمتهم الحياة فعاشوا عيشةً وضيعة، إنهم لم يخطئوا، ولم يكونوا من الصالحين. فالسماء تلفظهم، وجهنم لن تكون مثواهم. لقد أصبحوا نسيًا منسيًّا على الأرض، إنهم بالفعل لم يروا الدنيا أبدًا، فدعنا من الحديث عنهم ولننظر إليهم، ونمض قدمًا".

ونظر دانتي أمامه، فشاهد جمعًا غفيرًا، يقفون على شواطئ نهرٍ عظيم، وكلما أمعن النظر رآهم يتزايدون ويتجمعون، لأنهم جميعًا كانوا يريدون

عبور النهر، فاقترب هو وفرجيل وانضما إلى هذه الجموع، وانتظرا حتى وصل أمامهم قارب يقوده ملاح مسن أشعث الرأس، صارم عبوس الوجه، له لحية طويلة بيضاء، يغطي الشعر وجنتيه، وبدت عيناه وقد أحاطت بهما حلقتان متقدتان من الشرر. وعندما اقترب الملاح صاح قائلًا:

"الويل لك أيتها الأرواح الشريرة، لا تؤملي –البتة– في رؤية الجنة، فلقد أتيت لأنقلكم إلى الشاطئ الآخر، حيث الظلام الأبدي، حيث النار والجليد".

ثم التفت إلى دانتي وخاطبه قائلًا:

وأنت يا من تزال حيًّا.. ابتعد عن هؤلاء الموتى".

وعندئذ صاح به فرجيل قائلًا:

"سلام عليك يا خارون **Charon** إن دانتي موجود هنا بمشيئة واحدٍ لا راد لإرادته".

ثم التفت إلى دانتي وقال:

"هذا هو نهر آخرون **Acheron** العظيم، يفد إليه من كل صوبٍ المغضوب عليهم من الموتى ليعبروه، أما الأخيار فلا يعبرونه بهذه الطريقة".

وشاهد دانتي الأرواح تملأ القارب، وتتدافع لتأخذ كل منها مكانها، وظل خارون برفعها بعينيه المتقدتين، ويضرب مجدافه كل من أبطأ أو تلكأ في الصعود إلى قاربه. ونزلت الأرواح المتعبة إلى القارب، وهي تبكي بمرارةٍ وتندب حظها العاثر، وما إن أخذ القارب يبتعد مسرعًا عن الشاطئ، فوق

صفحة الماء الداكن، حتى أخذت جماعة أخرى من الأرواح تتجمع من جديدٍ على ضفة النهر.

لم يصعد دانتي إلى القارب، وبينما هو يتطلع إلى ما حوله إذا بالأرض تزلزل زلزالها، ثم تهب ريح صرصر عاتية، وينتشر في الجو بريق قرمزي اللون، أفقد دانتي كل حواسه ومشاعره، فسقط مغشيًّا عليه كمن غلبه النعاس. وبعد قليلٍ أفاق من غيبوبته على أصوات رعدٍ قاصف، ونهض واقفًا ونظر حوله فلم يجد نفسه على شاطئ نهر آخرون كما كان، بل على حافة الجحيم البغيض، الذي تتجمع فيه كل خطايا العصور الغابرة. وكان ذلك المكان عميقًا ملبدًا بالغيوم، مظلمًا جدًّا، حتى إن دانتي لما نظر إلى أعماقه لم يستطع أن يرى شيئًا، ولكن عاصفة من بكاءٍ متصلٍ أصمتت أذنيه.

وشحب لون فرجيل فتجدد فزع دانتي، إذ كيف يستطيع التابع أن يتم رحلته، وينزل إلى هذه الهاوية إذا ما اضطرب المرشد؟

لكن فرجيل طمأن دانتي قائلا: إن شحوب لونه مرجعه الشفقة لا الخوف، ثم دخل الاثنان الطبقة الأولى من طبقات الجحيم.

ويبدو أن العقاب في هذا المكان كان أقل قسوةً، فرغم التنهدات التي كانت أصداؤها تتردد في الظلام، فإنها لم تكن مصحوبة ببكاءٍ أو عويل؛ ورأى دانتي جمهرةً كبيرةً من الناس، بين أطفالٍ ونساءٍ ورجال؛ فالتفت إليه فرجيل ليشرح له معنى هذا المنظر فقال:

"هذه هي (لمبو).. إن هذه الأرواح لم تقترف ذنبًا، سوى أنها لم تعبد الله كما يجب، وأنا واحد منهم، وهذا هو مرقدي، وما دمنا لم نقترف إثمًا،

فلن نُعاقَب عقاب أهل الجحيم، إلا أننا لن نستطيع دخول الجنة أبدًا، وهكذا سنقضي الحياة في شوقٍ عظيمٍ، ولكن بلا أمل".

وعندما سمع دانتي هذه الكلمات، فاض به الحزن، لأنه كان يعلم أن كثيرًا من عظماء الرجال يقيمون في هذا المكان.

وتابع دانتي وفرجيل السير وهما يتبادلان الحديث، ولم يذهبا بعيدًا، حتى رأى دانتي على مقربةٍ منه منطقةً ينبعث منها ضوء برَّاق يبدد ما حوله من ظلمات، وتسبح فيه أرواح كثيرة، يبدو أنها كانت تمتاز على بقية الأرواح، فسأل دانتي مرشده قائلًا:

"أيها الشاعر، يا فخر كل علمٍ وفنٍّ من هؤلاء الذين عظم شأنهم حتى إنهم يعيشون في النور، كما ترى، بينما كل من سواهم في ظلام؟".

فأجابه فرجيل قائلًا:

"أولئك أعلام الدنيا وعظماؤها، ما زالت ذكراهم حية فأكسبتهم مكانًا مرموقًا هنا في العالم السفلي".

وفي أثناء كلامه، دوى صوت من منطقة النور المتألق يقول:

"تحية كريمة للشاعر العظيم الذي يعود إلينا طيفه".

ثم تقدمت أربعة أرواح عظيمة في الظلام لمقابلة الزائرين، وكان لا يبدو على وجوههم حزن أو سرور، والتفت فرجيل إلى دانتي قائلًا:

"انظر إلى ذلك الذي يمسك السيف بيده، ويتقدم الآخرين كما لو كان أستاذهم، إنه هو مر أمير الشعراء، ثم هوارس الهجَّاء الكبير، وثالثهم

أوقيد، والأخير لو كان إنهم يحيونني لأنهم كانوا شعراء مثلي".

وتقدم فرچيل ليتكلم قليلًا مع زملائه، وهكذا رأى دانتي أعلام الإنشاد وقد اجتمعوا سويًّا، وبعد قليلٍ التفتوا إليه، وحيَّوه وكرمَّوه بأن جعلوه سادسهم.

وسار الجميع معًا نحو الضوء، حتى أتوا إلى عتبة قصرٍ فخم، تحيطه سبعة أسوار عالية، وتجري حوله قناة جميلة عبروها، ثم اخترقوا سبع بوابات، حتى وصلوا إلى روضةٍ تكسوها الحشائش الخضراء، يقيم بها جماعة يدل مظهرهم على أنهم كانوا من علية القوم، نظراتهم هادئة نافذة، وأصواتهم عذبة، وكلامهم قليل، وهؤلاء يؤويهم "قصر المجد العظيم".

وانتحى دانتي وفرجيل مع رفاقهم ناحيةً، من هذه الروضة، في مكانٍ يرتفع قليلًا عن الأجزاء الأخرى، حتى يتسنى لهم مشاهدة كل شيء، ولقد أشار القوم إلى دانتي، وعرَّفوه بكثيرٍ من أرواح العظماء التي كانت تتجول في حريةٍ تامة، فوق الحشائش الخضراء الزاهية، فرأى إلكترا وهكتور، وإينياس، وقيصر بكامل أسلحته، وكان عينه عين صقر، وشاهد أرسطو، وقد أخذ بمجلسه بين كثيرٍ من العلماء الذين كانوا يحترمونه ويعترفون بفضله؛ ومن بينهم سقراط، وأفلاطون وشيشرون وسينيكا، وإقليدس، وكثير غيرهم.

ولم يستطع دانتي وزميله البقاء طويلًا في هذا المكان الممتع، فقد تركهم رفاقهم الأربعة، لذا اتخذا طريقًا آخر، وابتعدا عن الهدوء والسكينة، وسارا في الفضاء العاصف، حتى وصلا إلى مكانٍ يكتنفه ظلام دامس.

٢- دانتي يقابل "باولو"، و فرانشيسكا في طبقة الجحيم الثانية

تابع الاثنان السير وخرجا من طبقة الجحيم الأولى، حيث كان يقيم عظماء العالم القديم، ثم هبطا إلى الطبقة الثانية، وهي أقل اتساعًا ولكنها تفيض بالعذاب الأليم والحزن العميق. ولما اقتربا من مدخلها شاهدا مينوس (قاضي الجحيم) نصفه إنسان، والنصف الآخر حيوان. كان يجلس هناك على الدوام، ويعين لكل مذنبٍ المكان المناسب لينال جزاءه فيه، وكان يفعل ذلك من غير أن يتكلم، بل كان يكتفي بأن يلف ذنبه حول جسم المذنب، عندما يمر أمامه عددًا من المرات، تشير إلى طبقة الجحيم التي كان يلقى فيها عقابه الأبدي.

وبعد أن مرَّ دانتي وفرجيل أمام مينوس وصلا مكانا مظلمًا، يملؤه البكاء والنحيب، وتهب عليه رياح عاتية ترعد كالبحر الصاخب إذا عصفت به الزوابع. ولقد أعد هذا المكان لعقاب أولئك الذين أسرفوا في حبهم أو أخطئوا فيه، لقد ارتضوا من قبل أن يجرفهم تيار العاطفة، فأصبحوا الآن في مهب رياحٍ عاتية، تلقي بهم عند هوة الجحيم السحيقة وتصرعهم كما تصرع العواصف الثلجية أسراب العصافير في فصل الشتاء. ثم تتخبط الأرواح وتترنح في صفٍّ طويلٍ تئن كما تئن الطيور النائحة.

وقد ذكر فرجيل لدانتي أن بين هذه الأرواح كثيرا من مشاهير الرجال والنساء، ومنهم كليوباترة، وهلينا التي أشعلت حرب طروادة وأخيل، وباريس، وتريستان، وغيرهم من أبطال التاريخ القديم. وتملكت الشفقة قلب دانتي فتوسل إلى فرجيل أن يسمح له بالتحدث مع اثنتين من تلك الأرواح، كانتا تدوران معًا في وسط هذه الزوبعة العاتية لا تترك إحداهما

الأخرى، وتتحركان حركةً خفيةً مع الرياح، فأجابه فرجيل قائلًا:

عندما يصبحان في مواجهتنا مرةً أخرى، خاطبهما باسم الحب الذي يقودهما، وسوف يلبيان نداءك.

وانتظر دانتي قليلًا ثم صاح مناديًا:

أيها الطيفان المتعبان، اقتربا وتحدثا معنا، إن لم يمنعكما أحد:

وما يهبط الحمام إلى عشه بأجنحةٍ مبسوطةٍ ساكنة، تقدم الطيفان في الظلام نحو الشاعرين، استجابةً لتوسلات دانتي وندائه الحبيب.

واقتربت فرانشيسكا الريمنية وحدها باولو، ثم أخذت تقص على دانتي قصتهما تلبيةً لرغبته فقالت:

"أيتها النفس الرحيمة العطوفة، لو أن مالك الملك يستجيب لنا، لصلينا من أجلك، لما أظهرت من عطفٍ علينا. إن مرشدك يعلم تمامًا أن المرء يحزن أعظم الحزن، إذا ما تذكر سعادته الماضية وقت الشدة. ولكن ما دمت تتوق إلى معرفة قصتنا فسأرويها لك:

"لقد ولدت على الشاطئ عند ملتقى نهر "اليو" بالبحر الأدريانيكي ثم أحببت باولو حبًّا عميقًا، وبادلني حبًّا بحب، غير أن حبنا لم يكن مشروعًا فدفعنا إلى ميتةٍ شنيعةٍ ما زلت أقشعر منها، مع أن الحب لا ينكره أحد لأنه من طبيعة القلب الرقيق.

ولم تكن فرانشيسكا بحاجةٍ لأن تروي تفاصيل مأساتها الأليمة؛ فدانتي كان يعلم أنه قد كتب عليها أن تُزف بناءً على رغبة والدها إلى السيد

جيانشوتو **Gyianciotto** الرميني، وكان مشوهًا دميم الخلقة، فأرسل شقيقه الأصغر باولو، ليحضر الفتاة من منزل أبيها، وعندما وقع نظر فرانشيسكا على هذا الشاب الجميل، ظنت أنه زوجها المنتظر، فأحبته من أول نظرة، وبادلها باولو حبًّا بحب، ثم اكتشفت أنه لن يكون زوجها، ولكنهما استمرا في غيهما، ومرت الأيام وفشل جيانشوتو في أن يفوز بحب فرانشيسكا، فأعمته الغيرة فقتلها هي وباولو الجميل. وها هما يكفِّران عن خطيئتهما في ذلك المكان حيث رآهما دانتي.

وبينما كانت فرانشيسكا تروي قصتها لدانتي، وقف باولو صامتا ثم غلبه البكاء وأخذ ينتحب، فحزن دانتي من أجله حزنًا شديدًا حتى سقط على الأرض مغشيًّا عليه.

٤- مستنقع ستيكس .. وأسوار مدينة ديس(٨) (العالم السفلي)

وظل دانتي في غيبوبته فترةً من الزمن، ثم استرجع قواه فلم يجد نفسه بين عبيد الشهوات، بل تبين أنه قد شرع في المرحلة التالية من رحلته، لقد مرَّ تحت إشراف فرجيل بمناطق عديدة، بها ألوان شتى من العذاب لمعاقبة الآثمين.

فرأى طبقة النهمين حيث يتدفق المطر الغزير، وتهب الزوابع الثلجية، وينهمر الصقيع، وحيث قبع الكلب كربيروس **Cerberus** ذو الرءوس الثلاثة ينبح على الآثمين، ورأى أيضًا المكان الذي يُعاقَب فيه الجشعون وغيرهم، وهناك تعرف دانتي على أرواحٍ كثيرة كان يعرف أصحابها من قبل أو كان يسمع بهم أو يتحدث إليهم.

---

(٨) Dis

وبعد أن أمضى الشاعران في التنقل، وقتًا طويلًا عصيبًا، استقلا زورقًا وعبرا مستنقعًا قذرًا كريه الرائحة، تخلف عن مياه نهر ستيكس **Styks** طمرت فيه أرواح الساخطين الحانقين.

وبينما كانا يسيران في جوٍّ كثيفٍ مشبعٍ بالضباب، سمع دانتي فجأةً عويلًا ينبعث من أعلى، فشخص ببصره وأمعن النظر إلى الغيوم ليرى ماذا قد يكون ذلك النواح.

فقال له فرجيل:

"يا بني، إننا نقترب الآن من مدينة ديس ولعلك تراها أمامك بأبراجها الحمراء وقد توهجت من لهيب النار التي تستعر فيها".

ونظر دانتي فأدرك أنهما بالغا تلك المدينة الحزينة ذات الأسوار العالية التي بدت وكأنها قدت من حديدٍ ملتهبٍ يتوهج احمرارًا كما قال فرجيل:

وعبر بهما الزورق ذلك المستنقع، وطاف حول الأبراج، ثم ألقى مراسيه فنزلا أمام الأبواب، وعندئذ نظر دانتي إلى أعلى فرأى أكثر من ألف شيطان، طردوا من السماء مع "لوسيفر" أخذوا يشيرون إليه في حنقٍ ويقولون:

"من هذا الذي يجوس خلال مملكة الأموات حيًّا؟"

فأومأ إليهم فرجيل بأنه يرغب في التحدث إليهم سرًّا، فسكتوا قليلًا ثم صاحوا قائلين:

"تعال أنت وحدك، ودع هذا الرجل الذي اجترأ على الحضور إلى هذه المملكة؛ دعه يرجع وحيدا في طريقه الأحمق لو استطاع إلى ذلك سبيلًا".

وعندئذ فقد دانتي الأمل في الرجوع إلى العالم العلوي، وتوسل إلى فرجيل وألح عليه لكيلا يتخلى عنه، وطلب إليه أن يعودا سويًّا بنفس الطريق الذي أتيا منه إذا تعذر عليهما السير قدمًا، فواساه فرجيل وأكَّد له أن ليس في مقدور أحدٍ أن يعوق تقدمهما ثم أضاف قائلًا:

"انتظرني هنا، وطمئن نفسك وابتهج، فلن أتركك وحدك في هذا العالم السفلي".

وانتظر دانتي وهو في حيرةٍ من أمره يتنازعه الرجاء والخوف، فلم يستطع أن يعرف الحديث الذي جرى، غير أنه رأى زبانية جهنم يندفعون خلف أسوار المدينة، ثم يوصدون أبوابها في وجه فرجيل الذي رجع بخطى متثاقلة شاخصًا ببصره إلى الأرض، وأخذ في مواساة دانتي قائلًا:

"لا تخف إذا بدا عليَّ الاضطراب، فسوف نتغلب على وقاحتهم، إن النجدة الإلهية في طريقها إلينا".

ثم وقف ليسترق السمع لأنه لم يستطع أن يتبين شيئًا في الظلام الحالك، والضباب الكثيف الذي انتشر حولها. وبينما هما على هذه الحال ينتظران ويقتلان الوقت بالحديث، بدرت من دانتي التفاتة إلى أعلى فرأى منظرًا مخيفًا، فوق قبة برجٍ من الأبراج العالية المتوهجة. لقد اعتلته ربات الغضب الجهنميات الثلاث، وكان لها سماء النساء وأطرافهن، ولكنها تخضبت بالدماء، وتمنطقت بالثعابين وتدلى شعر رأسها حبات صغيرة.

وقال فرجيل:

"أنظر "ميجايرا **Megoera**" على اليسار، و"الكتو **Aleeto**" على

اليمين تتوسطهما "تيسيفوني **Tisiphone**".

أخذت الجنيات تمزق صدورها بمخالبها، وتصرخ صراخًا يصم الآذان، ثم أطرقت فجأةً وأخذت كلٌ منها تصيح قائلةً:

لتأت ميدوسا فسوف نحيلها إلى حجر.

فأسرع فرجيل وخاطب دانتي قائلًا:

"أدر وجهك، وأغمض عينيك، فلو ظهرت جورجون ونظرت إليها فلن تعود إلى الأرض ثانيةً".

ولم يترك الأمر لدانتي فأمسك بكتفيه وأدار وجهه بنفسه، ووضع يده فوق عينيه، حتى يتأكد من نجاته. وبينما يقفان هكذا دوى صوت مرعب، وسمعا ضجيجًا هائلًا، تردد صداه فوق مياه أستكس العكرة فاهتز له الشاطئان، فكان كعاصفةٍ هوجاء عندما تجتاح غابةً في الصيف القائظ، تنتزع الأغصان وتثير الغبار، فيهرب الرعاة وتفر الحيوانات المتوحشة. وعندئذٍ رفع فرجيل يده عن عين دانتي وقال:

"والآن انظر هناك.. عبر النهر حيث تبلغ كثافة الضباب أقصاها".

ونظر دانتي فرأى ملاكًا يقترب منهما عبر المستنقع، دون أن تبلل المياه قدميه، وكان يحرك يده اليسرى أمام وجهه، ليزيح ذلك الضباب الكثيف، فأيقن دانتي أنه رسول من السماء؛ وظل -كما أمره فرجيل صامتًا مطأطئ الرأس إكبارًا واحترامًا.

وعندما بلغ الرسول باب المدينة، لمسه بعصاه فانفتح أمامه في الحال

وأخذ يغلظ في القول لنزلاء هذا المكان قائلًا:

"يا من احتقرهم السماء ونبذهم، لِمَ هذا العناد؟ اعلموا تمامًا وتأكدوا ألا فائدة من ثورتكم على المشيئة السماوية، فلن تجديكم السخرية بالأقدار شيئًا".

وقفل الملاك راجعًا من حيث أتى، دون أن يتحدث إلى الشاعرين لأنه فيما يبدو كان مهتمًا بالتفكير في أمورٍ أخرى. ولما اطمأن دانتي وفرجيل بعد تدخل الرسول وتأنيبه، تقدما ودخلا المدينة دون أن يعترض سبيلهما أحد.

٥- قبور الملحدين الملتهبة وجماعة الكنتاوري[٩]

حول نهر الفليجيثون[١٠]

بعد أن تمكن دانتي وفرجيل من دخول مدينة ديس (العالم السفلي) أصبح دانتي مشوقًا لمعرفة ما تحويه هذه القلعة المنيعة بين جدرانها.

وكانت أسوار المدينة تحيط بأنقاضٍ متناثرةٍ كما هو الحال في منطقة آرل (**Arles**) عند مصب نهر الرون حيث توجد مدافن ضخمة أقيمت على أرضٍ غير مستوية، غير أن ألسنة اللهب كانت تتصاعد بين هذه المقابر، وكانت كل مقبرةٍ تكاد تشتعل نارًا، وتتوهج احمرارًا كالحديد عندما يشكله صانعه.

ورأى دانتي أمامه مقابر كثيرة قد رُفِعَ غطاؤها، تصدر منها تأوهات

---

(٩) The Centaurs

(١٠) The River Phelegethon

وأنات أليمة، فعرف أن هناك خاطئين يقاسون ألوان العذاب، وأخبره فرجيل أن هؤلاء هم الملحدون الذين ضلوا الصراط المستقيم، وأنهم أسرفوا في الإلحاد، فكان مثواهم أشد القبور اشتعالًا. ولقد تحدث دانتي إلى بعض هؤلاء الملحدين لأنهم كانوا من بين مواطنيه في فلورنسا.

وسار الشاعران في طريقهما بين المقابر المضطرمة، بينما أخذ فرجيل يصف لدانتي شكل الجحيم وتركيبه، ويشبهه بمخروطٍ أجوف عميق يمتد في جوف الأرض، حيث ينال كل مخطئٍ جزاءه في طبقةٍ من طبقاته بينما يهوى في أسفله أشد الآثمين جرمًا.

وقطع الشاعر الروماني حديثه ليشير إلى الطريق الذي كان عليهما أن يسلكاه، وكان منحدرًا صخريًّا من الصعب، بل من الخطورة، السير فيه، وزاد في رعبهم وفزعهم المينوتاور الذي كان يرقد في عرض الطريق أعلى المنحدر، وهو مخلوق نصفه إنسان ونصفه ثور، وما إن وقعت عيناه على الشاعرين، حتى أخذ ينهش نفسه بأنيابه كمن استشاط غيظًا.

وتحدث إليه فرجيل فأخذ يندفع إلى الأمام ثم يرتد إلى الخلف في ثورةٍ جامحة، فلما رأى الشاعر اليوناني ذلك صاح في دانتي قائلًا:

أسرع إلى الطريق، إن اللحظة التي يثور فيها الوحش هكذا هي اللحظة المناسبة للنزول.

فجرى دانتي يتبعه فرجيل، وتركا وراءهما هذا الوحش الثائر، وسارا عبر الهوة العميقة والصخور تهتز وتميد تحت قدمي دانتي...

وبينما كانا في طريقهما نظر دانتي إلى السهل الممتد أسفله فشاهد نهر

فليجيثون Phlegethon الواسع. كان النهر قرمزي اللون يفيض بالدماء، غاصت فيه أرواح السفاحين والطغاة، وسائر الذين اعتدوا على الناس ظلمًا.

وعلى الطريق الممتد بين حافة النهر وسفح المنحدر، رأى دانتي كثيرًا من الكنتاوري، وهي مخلوقات حكيمة نصفها الأعلى جسم إنسان ونصفها الأسفل جسم حصان، وكانت تعدو الواحد بعد الآخر تحمل سهامًا وأقواسًا كما لو كانت ذاهبةً للصيد والقنص.

وقفت هذه المخلوقات جامدةً في مكانها، عندما رأت الشاعرين يهبطان، وانبرى ثلاثة منهم يرفعون سهامهم استعدادًا للطعن وصاح أحدهم قائلا:

"أي عقابٍ حكم به عليكما أيها القادمان هنا؟ تكلما على عجلٍ وإلا رميتكما بسهامي".

فأجابه مرشد دانتي الحكيم قائلًا:

"لا تتسرع فسوف ندلي بإجابتنا إلى خيرون وحده".

ثم التفت نحو دانتي وقال:

"إن الذي يتكلم هو نيسوس، وهناك أيضًا خيرون العظيم الذي ربى أخيل، أما الثالث فهو "فولوس Pholos" الذي يتميز غيظًا. وكانت آلاف الكنتاورى تطوف حول شاطئ النهر، لترمي بسهامها كل مذنبٍ يحاول الخروج من فيض الدماء".

واقترب الشاعران من الوحوش، وتناول خيرون –أشعث الشعر– سهمًا أزاح بطرفه شعر لحيته إلى اليمين وإلى اليسار، وكشف عن فيه الضخم ثم قال لرفاقه:

"أترون كيف أن أحدهما ثقيل جدًّا، وأن الصخور تميد تحت قدميه؟ إن أقدام الموتى لا تحرك الصخور هكذا".

ولما سمع فرجيل كلامه أجاب في الحال:

"حقًّا إنه ما يزال حيًّا، وأنا أرشده في هذا الوادي المظلم، ولكني أستحلفك "بالفضيلة" التي فرضت علينا هذه الرحلة، أن تمدنا برجلٍ من رجالك ليقودنا إلى هذه المخاضة، ويحمل زميلي لأنه ليس روحًا تستطيع أن تتحرك في الهواء.

والتفت خيرون إلى نيسوس وأمره بأن يرشد الشاعرين، فتبعاه على طول النهر القرمزي الفاتر، وكان نيسوس في سيره يشير إلى كثيرٍ من الآثمين الغارقين في هذه الدماء ويذكر أسماءهم.

أخذ عمق النهر يتضاءل شيئًا فشيئًا، حتى أصبحت مياهه تغطى كعوب المذنبين فحسب، وهنا كان قطاع الطرق يلقون جزاءهم عما اقترفت أيديهم من آثام، تقل بكثيرٍ عما ارتكبه الطغاة والمستبدون، لذا كان عقابهم أقل شدةً من عقاب غيرهم، فبينما كان السفاحون يغوصون عن آخرهم في النهر، فإن دماءه كانت لا تغطي من قطاع الطرق إلا كعوبهم، وعبر الشاعران نهر الدماء من هذا المكان الضحل وتابعا رحلتهما، وعاد نيسوس أدراجه من حيث أتى.

٦- غابة المنتحرين

لم يكد "نيسوس" أن يبلغ الضفة الأخرى من النهر، حتى كان دانتي وفرجيل قد وصلا إلى أطراف غابةٍ لا يظهر فيها أثر لقدم، لم تكن أشجارها فارعة نضرة، ولم تكن أوراقها خضراء يانعة، وكانت أغصانها ملتوية جافة، يتدلى منها تفاح مسمم. ولقد اتخذت طيور "الهاربي"(١١) الجارحة أعشاشها فوق هذه الأشجار؛ وكانت لها رؤوس البشر وأجنحة هائلة يكسو جسمها الريش، وتنتهي أقدامها بمخالب حادة، وكانت هذه الطيور تحط على أعشاشها تنعق نعيقًا مرعبًا.

لقد بدت الغابة وكأنها امتلأت بالنحيب والعويل، فدهش دانتي وظن أن هذا الأنين صادر من أشخاصٍ اختبئوا بين الأشجار؛ وأدرك فرجيل ما يدور بخلد زميله فقال:

"انتزع غصنًا صغيرًا من أغصان هذه الأشجار، يتكشف لك خطؤك" فصدع دانتي للأمر، ومد يده وكسر غصنًا من شجرة، فبدت كأنها تئن وتتألم، وانبعث منها صوت يصيح:

لِمَ تفعل ذلك؟ أو ليس في قلبك شيء من الرحمة؟ لقد كنا بشرًا ثم تحولنا إلى أشجار، ولو كنا أرواح أفاع لأشفقت علينا أكثر من ذلك.

وبدت هذه الكلمات وكأنها تخرج من نهاية الغصن مع الدم المتدفق، وكانت كصوت الفحيح الذي ينبعث من غصنٍ رطب، عندما يشتعل

---

(١١) طير جارح ورد ذكره في الأساطير اليونانية، له جسك امرأة وأجنحة الطير وأقدامها ومخالبها، عده القدماء رسول النقمة لدى الآلهة.

طرف من طرفيه. واستولت الدهشة على دانتي فألقى بالغصن جانبًا، ووقف خائفًا وجلًا.

غير أن فرجيل تحدث إلى الشجرة قائلًا:

"أيتها الروح المعذبة، لقد دفعته إلى إيذائك والحزن يملأ قلبي، ولكن لم تكن هناك من وسيلةٍ أخرى ليعرف حقيقة أمرك، لأنه كان لا يقنع بمجرد كلامي إليه؛ ومع ذلك فإنه يستطيع التكفير عن خطئه بأن يذكرك بالخير عند الناس في عالم الأحياء الذي سيعود إليه، فقولي له من تكونين؟

فأجابت الشجرة قائلةً:

"لقد شجعتنى رقتك وكلماتك الطيبة على الحديث.. أنا بيير الفيني صديق ومستشار فردريك الأكبر الصقيلي الذي كان يثق في ثقةً عمياء، لم يخف عني سرًّا، غير أن الحسد في البلاط أثار ضدي أناسًا آخرين، فاتهمت بخيانة سيدي، فأبت عليَّ نفسي ذلك فانتحرت. أقسم لك أني كنت بريئًا من الخيانة. فأتوسل إليك إذا ما رجعت إلى عالم الأحياء، أن تبرئ ساحتي من تهمة الخيانة الشائنة".

استحثه فرجيل أن يستطرد في حديثه معنا، ويخبرنا كيف حشرت أرواح الذين ينتحرون في جذوع الشجر، وهل في استطاعتهم الخلاص منها. فاستمر "بييرو" في حديثه، ودوى صوته من الغصن المنزوع قائلًا:

وعندما تترك أرواح المنتحرين أجسادهم البشرية، يحكم عليها مينوس بالنزول إلى هذا الدرك السابع من الجحيم، فتسقط في هذه الغابة، وتتخذ لها جذورًا في الأرض، لا تلبث أن تنمو في أي مكانٍ تسقط فيه كميات

القمح، ثم تتحول إلى شجيرات، ثم إلى أشجارٍ ملتوية، فتأتي طيور الهاربي الجارحة فتأكل أوراقها، مما يسبب الألم الدفين للأرواح التي تحتلها.

وسوف نعود يوم الحساب ككل البشر إلى أجسادنا التي انفصلت عنا، ولكن ما دمنا قد تخلينا عنها بمحض إرادتنا، فمن العدل ألا نعود إليها ثانيةً بعد أن تخلصنا منها. لذا سوف نحضر إلى هذه الغابة الحزينة وسوف يعلق كل جسدٍ على الشجرة التي تحل بها روحه.

وبينما كان دانتي، وفرجيل يستمعان إلى حديث "بيير الفيني" جذب انتباههما صوت تحطيم في الغابة، كما لو كان هناك صيادون يتعقبون خنزيرًا بريًّا، فاستدارا ليستطلعا الخبر، فإذا بهما يشاهدان روحين عاريين تشبهان البشر، وتجريان مولولتين في ذعرٍ وهلع، وتشقان طريقهما عبر الأشجار، تتعقبهما مجموعات عديدة من كلاب الصيد السوداء المتعطشة اللاهثة التي كانت تملأ الغابة. وبعد أن أعيا الجهد أحد الطيفين توارى خلف شجيرة، لكن دون جدوى، فقد انقضت عليه الكلاب ومزقته تمزيقًا وحملت معها أطرافه المتناثرة.

ثم بدأت الشجيرة في الصراخ والعويل، وأخذت أغصانها المحطمة في البكاء، وجذب فرجيل دانتي إليها وسألها عن حالها، فعلم الشاعران أن هذه الشجيرة تحمل روح أحد الفلورنسيين المنتحرين، فعاود دانتي حنينه لوطنه، فجمع أوراقها وأغصانها المتناثرة التي حطمتها كلاب الصيد، وجعل منها كومةً وضعها أسفل هذه الشجيرة.. ثم خرج يصحبه فرجيل من هذه الغابة الحزينة التي تقمصت كل شجرةٍ من أشجارها روح بشرية.

٧- دانتي يستمع إلى قصة عجوز كريت.. ثم يقابل برونيتو لاتيني

تابع دانتي وفرجيل طريقهما حتى وصلا إلى مكانٍ آخر أعد للعذاب يحف بالغابة ما يحف بها نهر فليجيثون، وقد بدأ المكان الجديد كصحراء لا حياة فيه، تكسو أرضه طبقةً كثيفةً من الرمال الجافة، وعلى امتداد هذه الرمال المترامية الأطراف تتساقط شظايا هائلة من اللهب تنهمر كالمطر جون توقف، أو كالجليد الذي يتساقط على الجبال في يومٍ سكن ريحه، ولقد ألهبت هذه الشظايا الرمال حتى أضحت لا تطاق، وكانت ترزح تحت السيل المنهمر من الشظايا المحرقة جماعات كبيرة من الأرواح العارية، منها المستلقي على ظهره، ومنها الجالس القرفصاء، ومنها ما يهيم على وجهه جيئةً وذهابًا، يبكون جميعًا في حسرةٍ وألم، ويحاولون بأيديهم إبعاد شظايا اللهب التي تتساقط على رؤوسهم ون توقف.

هؤلاء هم المعذبون الذين كفروا بربهم وجحدوا نعمته، ووجد دانتي من بينهم الكثيرين، ممن ضلوا وأوغلوا في الضلال، وتحدث الشاعران إلى بعضهما البعض في أثناء وقوفهما، وأخيرًا التفت فرجيل إلى دانتي وخاطبه قائلًا:

"اتبعني يا بني، وحاذر أن تطأ قدماك هذه الرمال الملتهبة، ابتعد عنها، وسر على حافة الغابة".

وتابع الشاعران طريقهما في هدوء، حتى وصلا إلى مكانٍ يجري فيه جدول صغير ينبع من الغابة، له شاطئان صخريان مرتفعان أشار إليهما فرجيل قائلًا: إ"ن هذا هو الطريق الذي يجب أن تسلكه الأرواح في أمان،

لأن ألسنة النيران لا تستطيع أن تمتد إلي". ثم أضاف قائلا:

"من واجبي أن أزيدك إيضاحًا يا بني، إن هذه الأنهار التي تراها تنبع من مصدرٍ واحدٍ مشترك، ومن الخير أن تعرف منها شيئًا. هناك في العالم الآخر جزيرة منعزلة في وسط البحر اسمها (كريت) يقوم عليها جبل موحش، كان غنيًّا فيما مضى بالمياه والأشجار المورقة، وفي وسط تمثال ضخم لشيخٍ عجوز، يطل بوجهه ناحية روما، وكان رأسه من الذهب الخالص، وذراعاه وصدره من الفضة النقية، وبقية أعضائه من حديدٍ صلب، إلا ساقه اليمنى التي يستند إليها، ويرتكز بثقله عليها فكانت من الخزف. وفيما عدا الرأس كان جسمه مشققًا شقوقًا تسيل منها دموع تتساقط من صخرةٍ إلى صخرة، وتتجمع في النهاية بهذا الوادي العميق، حيث ينبع نهر (أخيرون) و(ستيكس) و(فليجيثون) ثم تنحدر المياه بعيدًا إلى الأعماق، حيث يتكون مستنقع (كوكوتوس) وسوف نمر به حالًا، فلا حاجة لأن أصفه لك الآن.

هذه قصة الرجل العجوز في كريت، ومنها تدرك أن هذه المياه التي تفيض على هذا العالم السحيق، إنما تنحدر من ذلك المنبع".

وعندما انتهى فرجيل من سرد روايته، سار وزميله الشاعر على الشاطئ الصخري المرتفع عبر الرمال الملتهبة والغابة من خلفهما، وبينما هم يتبعان سيرهما، أخذت جماعة من الأرواح تقترب منهما نحو الشاطئ، وأخذت كل روحٍ منها تمعن النظر إليهما، كما يمعن العجوز النظر في ثقب إبرته!

وتعرف أحدهما على دانتي، فأمسك بتلابيبه قائلًا:

"يا للعجب!".

فنظر إليه دانتي، برغم التغييرات الواضحة التي أحدثتها به الرمال الملتهبة، والنيران المتساقطة؛ فقد تأكد له أنه برنيتو لاتيني(١٢) الذي كان يعرفه حق المعرفة، ويحبه كل الحب في حياته، والذي كان له بمثابة المربي الحنون، والمرشد الأمين. فصاح به دانتي قائلا:

"هل أنت حقًّا (برونيتو)؟"

فأجابه قائلًا:

"دعني يا بني أحدثك بعض الوقت تاركًا رفاقي، يمضون في سبيلهم".

فتوسل إليه دانتي في إخلاص أن يتفضل بالحديث إليه، وعلى الرغم من أنه لم يجرؤ على النزول إلى الرمال المتوهجة، ولم يطأها بقدميه، فقد سار عاري الرأس احتراما وإجلالًا لأستاذه السابق.

وقد سأله (برونيتو):

"أي قدرٍ دفعك إلى هنا، مع أنك لا زلت حيًّا؟ ومن هذا الذي يهديك سواء السبيل؟"

فأجابه دانتي قائلًا:

"هناك في العالم العلوي ضللت طريقي، ووجدت نفسي أضرب على

---

(١٢) Brunetto Latni

غير هدى في وادٍ من الوديان، ولم أكن قد بلغت نهاية أجلي، ثم ظهر لي هذا الرجل الذي يرشدني إلى وطني عبر هذا الطريق".

وأخذ الاثنان يتبادلان حديثًا وديًّا عذبًا، وأخيرًا وعد الأستاذ تلميذه بأنه سيبلغ بر السلام إذا سار وفقًا لما يشير إليه طالعه، وأخبره أيضًا بأن كثيرًا من الأحزان ستنزل به بسبب أترابه من الفلورنسيين الناكرين للجميل.

وعرف دانتي الكثير من أسماء المعذبين في هذه الطبقة، وبعد هنيهة قطع الأستاذ حديثه مع دانتي قائلًا: إنه لا يستطيع البقاء طويلا، ثم عاد يسابق الريح كما لو كان يريد الفوز –لا الهزيمة– في السباق التي كان يقام كل عامٍ في (فيرونا).

وبعد انصراف الأستاذ، جاء كثير من الفلورنسيين الذين كان دانتي يعرفهم؛ فعرفوه وتحدثوا إليه حديثًا طويلًا عن فلورنسا، وكيف فارقتها الشجاعة، وتخلت عنها الكرامة، وحلت بها عوامل الشر، فأضحت تقاسي العذاب لجشعها وكبريائها، وتوسلوا إليه أن يعمل على إحياء ذكراهم بين الناس عند عودته إلى الأرض؛ ثم ولَّوا الأدبار مسرعين حتى بدت أقدامهم وكأنها أجنحة طير.

وقطع المسافران مسافةً طويلةً في طريقهما على حافة النهر، ثم سمعا خرير مياهه تتساقط على الطبقة التي تليها إلى أسفل، وكأنها طنين نحلٍ يحوم حول خلية. وبعد أن توغلا قليلًا إلى الأمام، لم يستطع أحدهما أن يتبين كلام الآخر، فقد أصبح الطنين وكأنه هدير تيارٍ جارف، يندفع في

عنفٍ فوق منحدرٍ شامخ. وأخيرًا بلغا النهاية، فتوقف الشاعران، وتعجب دانتي كيف يمكنهما النزول من هذا المنحدر.

٨- الهبوط على ظهر جيريون

وبينما كانا يقفان على حافة المنحدر، ألقى دانتي بصره إلى أسفل فلم يستطع أن يتبين أي طريقٍ يمكن النزول منه، وكان يتمنطق بحبلٍ فأمره فرجيل أن يعطيه إياه، وألقى به فرجيل من ناحية طرفه المعقود إلى الهوة، ومال بجسمه إلى الأمام ليتبين مكان سقوطه، فحدَّثَ دانتي نفسه قائلًا:

"لا بد أن يعقب هذه الحركة شيء غريب".

وقد حدث ما توقعه دانتي فعلًا، فقد رأى شبحًا ضخمًا يسبح إلى أعلى خلال الضباب الكثيف، ويتحرك كما لو كان رجلًا يغوص في البحر ليزيل عن مرساة سفينته ما علق بها، ثم يطفو إلى سطح الماء مادًّا ذراعيه فوق رأسه، طاويًا ساقيه أسفل جسمه.

وعندئذ قال فرجيل:

"انظر إلى ذلك الوحش الشرير ذي الذنب المدبب، إنه جيريون(١٣) رمز النفاق والتضليل، الذي يتسلق الجبال، وينفذ خلال الأسوار والموانع ليفسد العالم أجمع".

هذا ما قاله فرجيل، ولا يمكن الإنسان أن يتصور هيئة هذا المخلوق العجيب الذي رآه دانتي. كان له وجه إنسان مطبوع بالرقة والحنان،

---

(١٣) Geryon

وجسمه جسم أفعى، ومخلباه يعلوهما الشعر، كما تغطي ظهره وصدره وجنبيه حلقات وخصلات من شعرٍ مختلف الألوان. لا تحاكي أقمشة الأتراك أو التتر زركشته، ولا تستطيع أراخنا(١٤) أن تنسج نسيجًا مثله.

ثم دعا فرچيل هذا المخلوق العجيب ليصعد إلى الشاطئ، فلبى دعوته ووضع رأسه ومخالبه على حافته، تاركًا نصفه الخلفي يتدلى في الهوة السحيقة، رافعًا ذنبه المدبب كذنب العقرب إلى أعلى. ثم تحدث إليه فرجيل، وأمره أن يعد منكبيه العريضين ليهبطا عليهما.

صعد فرجيل إلى ظهر هذا الوحش ثم خاطب دانتي قائلًا:

"والآن، تمالك أعصابك وكن شجاعًا، فليس أمامنا من وسيلةٍ للهبوط إلا هذه. اصعد واتخذ مكانك أمامي، لأكون خلفك فأقيك شر ذيله".

فارتعد دانتي، وشحب لونه من شدة الخوف، غير أنه خجل أن يبوح بمخاوفه لفرجيل، فامتطى ظهر الوحش، ولسان حاله يقول لفرجيل:

"أنا في رعايتك، لا تدعني أفلت من أمامك".

ثم زادت مخاوفه فأخذ يرتعد في عنف، واحتبس صوته، ولم يستطع التعبير عما يدور بخاطره. غير أن فرجيل فعل ما كان دانتي يبغى، فقد أمسك به بشدة ثم قال "لجيريون":

"والآن هيا بنا ولكن على مهل، وليكن هبوطك تدريجيًّا، وفي دوراتٍ متسعة، وفكر جيدا فيمن تحمل".

---

(١٤) Arechne

ثم تحرك جيريون كالزورق يهادي حين يبرح مرساه موليًا وجهته ناحية الشاطئ الآخر، واستدار بوجهه إلى الناحية الأخرى، ومد ذيله، وأخذ يلوح به في الهواء كثعبان البحر، ثم أنطلق يضرب الهواء بمخالبه. ووجد دانتي نفسه معلقًا في ذلك الفضاء، لا يرى شيئًا غير الوحش الذي يمتطيه، فامتلأ قلبه رعبًا، وبلغ به الخوف حدًّا لا يدانيه خوف فايثون(١٥) عندما سقط منه عنان مركب الشمس، ولا بأس إيكاروس(١٦) عندما أحس ذوبان الشمع الذي ثبت به جناحيه.

كان جيريون يسبح بهدوءٍ في الهواء، هابطًا وهو يدور إلى الأعماق، ولم يشعر دانتي أنهم يهبطون إلا من الرياح التي كانت تلفح وجهه، وبعد قليلٍ سمع هدير مياه إلى أسفل، فأطل برأسه ليتبين حقيقة الأمر فتضاعفت مخاوفه، إذ رأى نيرانًا مستمرةً، وسمع عويلًا متواصلًا ينبعث من هناك. ثم هبط جيريون كما يهبط الطير إذا أعياه التعب وأنهكه التحليق، هبط إلى مكانٍ قريبٍ من قاعدة الصخرة، وأنزل الشاعرين. وما كاد يتحرر من حمله الثقيل حتى انطلق كالسهم، تاركًا فرجيل ودانتي في أعماق الجحيم.

٩- دانتي يقابل البابا نيقولا الثالث

وقف دانتي يدقق النظر فيما حوله، فإذا به أمام طبقة ماليبولج بالجحيم التي تقع عند قاعدة المنحدر السحيق الذي نزل إليه الشاعران، وفي وسط هذا المنحدر بئر متسع عميق يؤدي إلى طبقةٍ أعمق، أعدت للعذاب الأبدي. وكانت ماليبولج كما رآها دانتي مصطبة متسعة تمتد من سفح

---

(١٥) Pharethon

(١٦) Learos

المنحدر السحيق إلى حافة البئر العميق، وتنقسم إلى عشر حلقات أو وديان تفصلها السدود العالية، وكانت هذه الحلقات أشبه ما تكون بالخنادق المتتابعة التي كانت تحيط بالقصور، وقد أقيم على هذه السدود قناطر تصل ما بين قاعدة المنحدر والبئر الرئيسي، اتخذ منها المسافران طريقًا لهما.

وسار فرجيل يتبعه دانتي وهو يمعن النظر في الحلقات السفلى، فرأى كثيرًا من الآثمين وخليطًا من المعذبين، وكان نصيب بعضهم من العذاب قاسيًا، تلهبهم بسياطها الطويلة بلا هوادة زبانية لها قرون.

وعندما بلغا المكان الذي يتوسط الحلقة الثالثة فوق القنطرة، وقف دانتي مشدوهًا يسبح بعدل الله وحكمته، الذي قدر مثل ذا العذاب للمحتالين، من أمثال سمعان الساحر الذي كان يبتز الذهب والفضة كنذرٍ لأرواح الموتى، مع أنها لا تقدم إلى لأولياء الله الصالحين.

وإلى أسفله على الصخرة، التي يحاكي لونها الصدأ، والتي تتكون منها ماليبولج، رأى دانتي كثيرًا من الفتحات في حجمٍ واحد، كانت تبرز من كلٍّ منها قدما مخطئ من الخاطئين، حتى منتصف الساقين، بينما شد باقي جسمه ورأسه إلى الصخرة، ولم يقتصر عذابهم على ذلك، بل اشتعل باطن أقدامهم، من العقب حتى الأصابع بالنيران، ما تشتعل الأسطح الزيتية من شدة الحرارة، وكان كل مخطئٍ يضرب برجله، ويقاوم مقاومةً عنيفةً، حتى بدا قادرًا على قطع أقوى الحبال إذا ما شد بها.

فصاح دانتي قائلًا:

"سيدي من يكون ذلك الرجل الذي يستميت في المقاومة أكثر من غيره، يبدو أنه اكتوى بلهيبٍ أشد منهم".

فأجاب فرجيل قائلًا:

"إذا رغبت حملتك إلى هذا المنخفض، وسوف تعلم منه من هو وما خطيئته".

ووافق دانتي في شفف، وحمله فرجيل وتسلق السد الرابع الذي يفصل بين الحفرات، وأنزله بالقرب من الحفرة التي يتردى فيها الخاطئ، وكان يضرب الأرض في عنفٍ وقوة، وابتدره دانتي قائلًا:

"أيتها الروح الحزينة، من أنت؟ ومن الذي أنزل نصفك الأعلى إلى أسفل فأضحيت كالوتد المدقوق في الأرض، تحدثي إذا استطعت".

فأجابت الروح قائلةً:

"هل حضرت يا بونيفاس وهل سئمت بسرعة الثورة التي من أجلها لجأت إلى الخيانة، حتى تقلدت منصبك في روما وجمعت عن طريقه مثل هذه المغانم الزائلة؟

وكانت هذه روح البابا نيقولا الثالث. لقد حسب أن دانتي هو بونيفاس الثالث الذي جمع ثروةً طائلةً عن طريق كرسي البابوية، وشغلته أطماع الدنيا عن عبادة الله.

وبناءً على أمر فرجيل أجاب دانتي على الفور قائلًا:

"أنا لست بونيفاس".

وعندئذ لفَّ ذلك المذنب قدميه بشدة، وتأوه وقال وهو يبكي:

"إذا كنت تريد أن تعرف من أكون، فاعلم أنني أحد الباباوات، كنت تواقًا إلى الانفراد بالسلطة والجاه لأسرتي، ولم يشغلني شاغل عن جميع المال في الحياة الدنيا، ولهذا تجدني هنا كالحبيس، داخل كيس نقود. كما تجد هناك تحت رأسي في تشققات الصخرة، المحتالين الذين ظهروا قبلي، وسوف ألحق بهم عندما يأتي بونيفاس إلى هذا المكان، وسوف يدفع بي إلى أعماق الصخرة، ويغرس هو مكاني وتشتعل قدماه".

وامتلأ قلب دانتي سخطًا على هذا البابا الضرير فقال له:

"والآن أخبرني: كم طلب السيد المسيح من المال عندما عهد بالمفاتيح الكبرى إلى القديس بطرس لتكون في حيازته؟

"هل طلب منه أي شيءٍ سوى أن يتبعه؟

"حتى باقي الحواريين لم يطلبوا إلى متى(١٧) ذهبًا أو فضةً عندما اختير بالإجماع ليحل محل يهوذا الإسخريوطي، وعلى هذا فلتبق في مكانك هذا، والجزاء من جنس العمل، ولولا احترامي للمنصب الذي تقلدته في حياتك الدنيا، لكنت أسمعتك من الكلام أقساه، بسبب جشعك وجشع أمثالك، هذا الجشع الذي أرهق العالم كله، ودفعك إلى الإعلاء من شأن الأشرار، ونبذ الأخيار. لقد اتخذتم أيها الكهنة من الذهب والفضة إلهًا، لا فرق

Mathias (١٧)

بينك وبين المشركين، إلا أنهم يعبدون إلهًا زائفًا، وأنتم تعبدون آلهة عدة في صورة نقود!".

وبينما كان دانتي يقول ذلك كان الرجل يضرب الأرض بقدميه في عنفٍ ظاهر، إما بسبب غضبه أو لسوء نواياه. وأبدى فرجيل ارتياحه لكلمات دانتي، فكان يبتسم وهو يستمع إلى حديثهما. ولم يلبث أن أخذ دانتي بين ذراعيه، وصعد به عبر الطريق الذي نزلا منه، وكان طريقًا وعرًا، يصعب حتى على العنزات ارتقاؤه، ثم أنزله في رفقٍ على القنطرة التي تطل على الحلقة الرابعة من ماليبولج.

١٠- دانتي يشاهد عذاب السحرة والعرافين

في هذه الحفرة الرابعة شاهد فرجيل ودانتي تعذيب من مارسوا ألوان السحر المختلفة.. أولئك هم الراجمون بالغيب، والعرافون ومن على شاكلتهم.

ونظر الاثنان إلى أسفل وشاهدا أرواحًا قادمةً في صمت، تسير خطواتٍ متثاقلة، وتبكي كأنها ترتل الأناشيد الدينية.

لم يعرف دانتي أول الأمر من يكون هؤلاء المذنبون، فقد بدا كل منهم وهو يقترب داخل الحلقة المستديرة مشوهًا كل التشويه، قد التوى وجهه إلى الخلف وراء كتفيه، وكان يسير إلى الأمام، وعيناه تبصران إلى الوراء.

وعندما شاهد الشاعر الفلورنسي أناسًا بهذه الصورة المشوهة، اتكأ على الصخرة، وأخذ يبكي بدوره كما يبكي المعذبون، والدموع تسيل على صدورهم، إذ كيف لعينيه أن تظلا متحجرتين عند رؤية هذا المشهد؟

وسرعان ما انتهره فرجيل قائلًا:

"لا محل للشفقة إطلاقًا، ولا تكن كالحمقى الآخرين، لا ذنب يفوق ذنب الذي يجدد عدالة الله، ارفع رأسك وانظر إلى العراف أمفياراوس(١٨) الذي النوى وجهه إلى الخلف، لأنه كان في حياته الدنيا تواقًا إلى معرفة ما ليس من حقه، فعليه الآن أن يبقى هكذا وبصره إلى الخلف.

انظر كذلك إلى العرافة مانتو التي تنساب ضفائر شعرها على صدرها، والتوى ظهرها إلى الأمام، لقد جابت الكثير من بقاع الأرض، واستوطنت بادئ الأمر مدينة مانتوا مسقط رأسي، ولهذا سأحدثك عنها:

إلى الشمال من إيطاليا الجميلة توجد بحيرة على سفح تلال الألب تعرف باسم بحيرة بينا كوس(١٩)، ينبع منها نهر مينكيو، الذي يفيض على مروج خضراء، ثم يجري في سهلٍ منخفض، ويكون مستنقع على مسافة ليست بعيدة من البحيرة، وقد مرت مانتو بهذا المستنقع فشاهدت في وسطه أرضًا جرداء خاليةً من الحياة، فنزلتها لتعتزل الناس أجمعين، ولتمارس فنون سحرها، وفي هذا المكان عاشت بقية عمرها حتى ماتت، وبعد ذلك تجمع أهل تلك المنطقة وأقاموا بها لأن المستنقع أكسبها حصانةً ومناعة، وهناك بنوا على عظام مانتوا مدينةً سموها مانتوا تيمنًا باسم من كان لها الفضل الأول في اختيار هذا المكان، وعلى ذلك إذا قدّر لك أن تسمع أية قصةٍ أخرى عن نشأة مدينتي، فلا تصدقها وقل القصة الحقيقية

Amphiaraus (١٨)

Benacus (١٩)

التي حدثتك بها.

ثم أشار فرچيل إلى كثيرٍ من العرافين والمنجمين والنساء البائسات اللاتي هجرن المغزل، وخيوط الغزل، واشتغلن بفنون السحر الخبيثة مستعينات بالأعشاب والدمى.

وأخيرا قال فرجيل:

"هيا بنا، إن القمر على وشك المغيب، لقد بدت تباشير الصباح فعلينا أن نسارع بالرحيل".

ثم بدأ الشاعران في متابعة المسير، وتركا وراءهما جحيم السحرة والمنجمين.

١١- زبانية جهنم ونهر القار المغلي

تابع الشاعران طريقهما فوق القنطرة، حتى وصلا إلى الحلقة الخامسة في الجحيم. وحدَّق دانتي إلى أسفل فوجد ظلامًا مخيفًا يكتنف المكان.

لقد اعتاد أهل البندقية في الشتاء أن يغلوا القار في أحواض السفن، ولما كان ركوب البحر مستحيلًا في ذلك الفعل، بسبب العواصف الهوجاء، لذا كان يقوم بعضهم بترميم هياكل السفن التي قامت برحلاتٍ متعددة، وبعضهم يعيد بناءها، وبعضهم يضربون على مقدمة السفينة بمطارقهم، والبعض الآخر يطرقون مؤخرتها، هؤلاء يصنعون المجاذيف وأولئك يجدلون الحبال، هذا يرتق شراعًا صغيرًا، وذاك يصلح شراعًا كبيرًا.

وكان هذا المكان كالبندقية مليئًا بقار سميك ملتهب، يكسو شاطئ

النهر، وأمعن دانتي النظر فيه، إلا أنه لم يستطع أن يتبين شيئًا سوى فقاقيع القار تتصاعد من شدة الغليان.

وبينما كان واقفًا يمعن النظر في ذلك المكان، إذا بفرجيل يجذبه إليه صائحًا:

"انتبه.. احترس".

وعند ذلك التفت دانتي مذعورًا ليرى ما الذي عليه أن يحذره، وما إن وقع بصره عليه حتى سقط في يده وارتعدت فرائصه؛ فقد اندفع خلف الشاعرين شيطان أسود قبيح المنظر خفيف الحركة له جناحان منبسطان، يحمل على منكبيه المدببين أحد المذنبين، يقبض عليه من طرف رجليه. ولم يلبث هذا الشيطان أن صاح:

هاك يا مالبرانش، أحد شيوخ لوكا، خذه وألق به في أعماق القار ريثما أعود لآتي بآخرين غيره.. إن نزلاء تلك المدينة جميعهم من المشاغبين والسماسرة الذين يستغلون مناصبهم في الكسب الحرام.

ثم قذف الشيطان بالمذنب الذي كان يمسك به في نهر القار، وقفل راجعًا إلى أعلى الصخرة، وترك فريسته يغوص ثم يطفو وهو يتلوى، غير أن حشدًا آخر من الشياطين كانوا يختفون أسفل القنطرة اندفعوا صائحين:

"إنك لا تسبح هنا كما لو كنت في نهر سرخيو الذي اعتدت أن تسبح فيه لا نطف على سطح الفار، والزم مكانك أسفله، إلا إذا أردت أن تجرب مخالبنا!"

ثم دفعوه لكما إلى أعماق القار، كما يدفع الطاهي قعطة اللحم في المرجل بالخطاف فتغوص فيه، ثم يثبتها في القرار حتى لا تطفو ثانية.

وعند ذلك قال دليل دانتي الحكيم.

"اختبئ خلف صخرة مرتفعة حتى لا يروك، ومهما يكن من أمري أنا فلا تخف علي، لأني جئت هنا من قبل، وأعرف كيف أواجه وقاحتهم"ز

واختبأ دانتي وتقدم فرجيل بمفرده إلى الأمام، وهو أشد ما يكون تجملًا بالعزم، فقد اندفع نحوه الشياطين كالعاصفة ومخالهم مسددة إليه كما تندفع الكلاب نحو متسولٍ، فقال لهم:

"ابتعدوا! وليحضر واحد من بينكم ليكلمني، والآن، احذروا أن يصيبني أي أذى منكم".

وعندئذ صاح الشياطين:

"دعوا ملكودا يذهب إليه".

ثم انبرى له واحد منهم، وتقدم إليه تاركًا رفاقه، خاطبه فرجيل قائلًا:

"هل تعتقد، يا ملكودا، أني كنت أحضر هنا في أمان، لولا أن العناية الإلهية فرضت علي رحلتي هذه؟.. دعني أمض في سبيلي، فقد شاءت إرادة الله أن أكون مرشدًا لهذا الرجل في ذلك الطريق الموحش".

وما إن سمع الشيطان ذلك الكلام، حتى بدأ يتخلى عن جبروته. وألقى بخطافه، وصاح في رفاقه الشياطين:

"لا تقربوه بسوء".

وعندئذ نادى فرجيل صاحبه قائلًا:

"أنت أما الرابض بين الصخور، تعال إلى جانبي آمنًا مطمئنًا".

فخرج دانتي من مخبئه، ويمم وجهه شطر فرجيل، وما إن رآه الشياطين حتى اندفعوا إليه، وكأنهم لم يستمعوا إلى ما أمرهم به قائدهم؛ فالتصق دانتي بمرشده، ولم يحول عينيه عن هؤلاء الشياطين، مرهفًا السمع إليهم وهم يهمهمون...

قال أحدهم:

"أآخذه بخطافي من ظهره؟".

فأجابه آخر:

"نعم اسلخه جيدًا".

وعندئذ أمر الشيطان الذي تحدث إلى فرجيل رفاقه أن يلوذوا بالصمت، ثم وجَّه حديثه إلى الشاعرين قائلًا:

ليس في مقدوركما أن تجتازا طريقكما عبر هذه القنطرة لأنها محطمة عن آخرها، وليس أمامكما، إذا ما رغبتما في متابعة السير، إلا أن تجتازا هذه الصخور الوعرة، إلى الطريق الصخري القريب، الذي يخترق الهاوية، وسأرسل معكما بعض أصحابي لمرافقتكما خلال هذا الطريق، ليروا إذا كان أحد المذنبين قد خرج من مستنقع القار ليسترد أنفاسه- اذهبا معهم فلن يقرباكما بسوء".

ثم صاح في رفاقه قائلًا:

"تعاليا يا ألينشيتو، وكالكابرينا وأنتم يا كانيازو، وليبيكوشو، ودراجينازو، وكيرياتو ذو الأنياب، وجرافيا كانا، وفارفاريللو وروبيكانتا الثائر.. وليكن بارباريشيا رائدكم.. اذهبوا حول مستنقع القار الفائر حتى تصلوا بهذين المسافرين في أمان إلى الطريق الصخري الذي يعبر باقي الحفر".

فصاح دانتي قائلا:

"سيدى.. دعنا نذهب وحدنا دون حراسة هؤلاء إذا كنت تعرف الطريق.. هلا رأيت كيف يكشرون عن أنيابهم مهددين متوعدين؟".

فأجابه فرجيل:

"دعهم يكشرون.. إنهم يفعلون ذلك للمذنبين في المستنقع".

وهكذا سار الجميع يقودهم الشيطان بارباريشيا فكانوا خليطًا بغيضًا، ولكنه خليط يليق هذا المكان، ويقال في الأمثال:

إن فلانًا في المعبد مع القديسين، في الخانة مع السكارى. وهكذا سار الشاعران في صحبة الشياطين العشرة في طريقهما إلى الحلقة السادسة من الطبقة الثامنة من طبقات الجحيم.

وفي أثناء سيرهما شاهدا نهر القار الفائر، وأبصر دانتي المعذبين وهم يحاولون من وقتٍ لآخر أن يهونوا على أنفسهم العذاب فيطفون فوق سطح القار بظهورهم تارة، وبرءوسهم تارةً أخرى على جانبي النهر، وكأنهم

حيتان بحر تطفو بظهورها فوق سطح الماء قبل هبوب العاصفة، فيأخذ البحارة حذرهم. وكان هؤلاء المعذبون يغوصون في القار الأسود الفائر ثانيةً، عند رؤية بارباريشيا وجماعته يقتربون، وحدث أن تأخر أحد المعذبين عن الغوص إلى القاع، وكان جرافيا كانا أقرب الشياطين إليه، فرماه بخطافه وجذبه من شعره الذي عقده القار كما لو كان (كلب بحر) وعند ذلك صاح باقي الشياطين:

"عليك بخطافك، وأعمل فيه أظافرك ومزقه تمزيقًا!".

كان دانتي يرقب ذلك في هلع، ثم وجه الحديث إلى فرجيل قائلًا:

"أتدري يا سيدى من يكون صاحب هذه الروح التعسة، الذي وقع هكذا في قبضة الزبانية؟".

فسار فرجيل إلى ذلك المذنب، وسأله من أين جاء إلى هذا المكان، فأجابه قائلًا:

"أنا كياميولو، ولدت في مملكة نافار، وانتظمت في خدمة سيدٍ عظيم، وأخيرًا التحقت بخدمة ثبوت الملك الطيب، فأقامني أمينًا على بيت صدقاته، فأخذت أتصرف فيها في خسةٍ تامة، للحصول على المال لمنفعتي الخاصة، ولهذا فإني أدفع الثمن غاليًا في هذا السعير!".

وبينما كان صاحب هذه الروح يتكلم، هجم عليه الشيطان كانازو وكان له فم الخنزير، ونابان يبرزان من طرفي فمه، وأراد أن يشعره أن في استطاعة كل واحدٍ من الزبانية أن يفتك به، غير أن بارباريشيا أخذه بين ذراعيه وصاح في الشياطين الآخرين:

"ليلزم كلٌّ منكم مكانه".

ثم التفت إلى فرجيل وطلب إليه أن يتحدث إلى ذلك المذنب إن كان يريد المزيد من الحديث.

وبينما كان فرجيل يسأل كيامبولو ليعرف منه إن كان هناك رومانيون آخرون في أعماق مستنقع القار معه، صاح ليبيكو شو قائلًا:

"لقد نفد صبرنا!"

ثم وثب على المذنب بخطافه.

وصاح كيامبولو وهو يرتعد قائلًا:

"إذا رغبتما في مشاهدة أحدٍ من التوسكانيين، أو اللمبارديين فسوف أستدعيه لكما. إن لنا إشارة خاصة تتمثل في صفيرٍ معروفٍ بيننا، فإذا ما طفا أحدنا على سطح القار، ولم يجد أحدًا من الزبانية أعطى الإشارة إلى زملائه في القاع ليخرجوا في أمان... وسوف أستدعي لكما منهم سبعةً أو يزيد، إذا حلتم بيننا وبين مخالبهم الشريرة!".

وما أن سمع كانازو ذلك الكلام حتى مد فمه، وهز رأسه قائلًا:

"انظروا إلى ألاعيبه! إنه يود لو أننا وقفنا إلى الخلف فيستطيع أن يقذف بنفسه إلى أسفل!".

فقال أليتشينو:

"لن يستطيع أن يفلت من أيدينا– دعونا نراهن عليه.. فليذهب وسترون أنه قبل أن يستقر في مكانه، سأنقض عليه وهو في طريقه وأقبض عليه!".

بدأ الزبانية يتناقشون فيما بينهم، وهم غافلون عن المذنب كيابولو فانتهز بدوره هذه الفرصة السانحة فألقي بنفسه وبكل قواه إلى النهر الفائر، فاندفع وراءه الزبانية، وطار وراءه، أليتشينو قائلًا:

"لن تفلت مني!".

لكن دون جدوى، فقد أعان الرعب المذنب على الإفلات قبل أن يلحقه الشيطان وهو يطير.

اندفع كيامبولو إلى القاع ومن خلفه الشيطان إلا أن الأخير ارتد عن هدفه، وترك المستنقع كصقرٍ يغوص في الماء وراء طير، ثم يرتد خاسرًا. وامتلأ قلب أليتشينو حنقًا بعد هذه الخديعة، وأثار ذلك حفيظة كالكابرينا وحنقه فاندفع وراءه يبغي نزاله. وأخيرًا التقى الاثنان، فرفع كلٌّ منهما مخالبه في وجه الآخر، والتحما سويًّا في عراكٍ عنيف، وبينما كان كلٌّ منهما يعمل أظافره في الآخر، سقط الاثنان في قلب المستنقع الفائر، وحال لهيب القار بينهما في الحال إلا أنهما لم يستطيعا الخلاص، فقد تلبدت أجنحتهما عن آخرها بالقار.

وأرسل بارباريشيا قائد الجماعة بأربعة من الزبانية الآخرين إلى الشاطئ المقابل في سرعةٍ خاطفة، فأرسلوا خطاطيفهم من الشاطئين نحو زميليهم، في منتصف المستنقع الأسود الذي انسلخ جلد الاثنين بمياهه التي تغلي.

شاهد فرجيل ودانتي كل ذلك، وأخيرًا وجدا أنه من الأفضل لهما متابعة السير، فسارا وتركا وراءهما كالكابريتا و اليتشينو يتطاحنان في عنفٍ وسط القار الفائر.

١٢- دانتي يرى جماعة المنافقين في معاطف من الرصاص

وسار الشاعران وحدهما في صمتٍ يتبع أحدهما الآخر، وبينما كان دانتي في طريقه أخذ يفكر فيما "إذا كان مسلكهما قد أثار ثائرةً هؤلاء الشياطين، لأنهم أوذوا وخدعوا بسببهما مما قد يضاعف في حقدهم السابق، لذا سوف يطاردونهما كما يطارد كلاب الصيد أرنبًا يعدو أمامهم بل أشد من ذلك".

ثم التفت إلى الخلف وقال لفرجيل:

"لنختبئ، نحن الاثنين سريعًا يا سيدي! إنني أخشى الشياطين، وأعتقد أنهم يجدون في إثرنا".

فأجابه فرجيل:

"لو أن عقلك من زجاج، لما قدر لي أن أستبين أفكارك أسرع من الآن؛ لقد فكرت فيما تفكر فيه، فإذا أمكننا أن ندلف إلى المنطقة التالية فسوف نتجنب مطاردتهم، إذ ليس لهم أن يتخطوا حدود طبقتهم الخامسة".

وبينما كان فرجيل يتابع كلامه، شاهد دانتي الشياطين يندفعون نحوهما في سرعة البرق، وأجنحتهم مبسوطة في الهواء؛ فأسرع فرجيل فضم صاحبه إليه.. كأمٍّ تنقذ وليدها من ألسنة النيران، وتؤثره بالرعاية على نفسها، وحمله على كنفه كما لو كان ابنه، وانحدر به سريعًا من الحافة. ولما بلغ الاثنان مستوى الطبقة التالية إلى أسفل، كان الشياطين قد وصلوا إلى أعلى المرتفع، ولكنهم لم يستطيعوا إلحاق أي أذى بهما بعد ذلك لأنه لم يكن في

مقدورهم ترك الطبقة المخصصة لهم إلى غيرها.

تحول تفكير دانتي وفرجيل إلى الطبقة السادسة التي وصلا إليها، وهناك شاهدا أناسًا اصطبغت وجوههم، وهم يدورون في خطواتٍ بطيئةٍ دون توقفٍ خلال الجحيم، ويبكون وهم يسيرون، وكان كل مذنبٍ يرتدي معطفًا له غطاء للرأس يتدلى إلى ما فوق عينيه يشبه زي الرهبان في مقاطعة كلوني[٢٠]. وهذه المعاطف، وإن كانت تبدو مذهبية اللون ذات بريقٍ خافت، إلا أنها قد صنعت من الداخل من رصاصٍ لا يحتمل لثقله.. إنه رداء سرمدي ثقيل!

وتابع الشاعران السير مع المذنبين، وهما يفكران في أمرهم، وكانت خطواتهما بطيئة جدًّا تتوافق مع خطوات أصحاب المعاطف، بل إنهما كانا يتبعان خطوات بعض المذنبين خطوةً خطوة، ثم قال دانتي لفرجيل:

"هل نستطيع أن نجد من بين هؤلاء المذنبين من نعرفه شخصيًّا أو هل بينهم من يحدثنا عن شخصٍ ممن تعرفهم؟".

وعند ذلك صاح من ورائهما أحد المذنبين ممن عرفوا لهجة دانتي قائلًا:

"تريثا يا من تسابقان الريس خلال الظلام! فلعلكما بالغان ما تريدان عن طريقي".

فقال لي فرجيل:

"تمهل... وسر إلى جواره".

---

(٢٠) cluny

ثم توقف الشاعران عن المسير، وشاهدا اثنين من هؤلاء المذنبين يهمان في شغفٍ عظيمٍ إلى اللحاق بهما، إلا أن ضيق الطريق ومعطفيهما الثقيلين، حالا دون تقدمهما بالسرعة التي كانا يبغيانها.. وما إن بلغ المذنبان مكان دانتي حتى أخذا يتفرسان في وجهه في صمت، ثم أخذ كلٌّ منهما ينظر إلى صاحبه، وأخيرًا قال أحدهما للآخر:

ويبدو إلى أن هذا الرجل لا يزال حيًّا، وأن الحركة تدب فيه، وإذا كان هو وصاحبه من الموتى، فلم لا يلبسان المعاطف الثقيلة؟".

ثم خاطب دانتي قائلًا:

"أنت أيها التوسكاني.. يا من جئت إلى وادي الأحزان حيث يعذب المنافقون، نرجو أن تخبرنا من أنت إن لم يكن في ذلك غضاضة".

فأجابه دانتي قائلًا:

"لقد ولدت في المدينة الكبرى، على ضفاف نهر أرنو الجميل وما زلت أضرب في الحياة الدنيا.. ولكن من أنتما، ولِمَ تبكيان بمرارةٍ بالغة؟ وما هذا العقاب "البراق" الذي ينزل بكما؟"

فأجابه الروحان:

"إن معاطفنا البراقة قد قدت من رصاصٍ سميكٍ ترزح تحته أبداننا، وتنكسر منه عظامنا؛ إننا راهبان من بولونيا: رفيقي لوديرنجو، وأنا كاتالانو.. جئنا هنا لننال عقابنا على جريمة النفاق".

وفيما هما يتقدمان قال دانتي:

"أيها الراهبان التعسان..."

ولم يزد على ذلك فقد وقعت أعينهم على أحد المعذبين منبطحًا على الأرض، ذراعاه ممدودتان إلى الخارج كما لو كان مصلوبًا، وما إن رأى دانتي حتى أخذ يئن ويتلوى، فقال الأخ كاتالانو:

"إن هذا الشخص الذي تراه أمامك هو ذلك المنافق الذي قال: إنه خير أن يموت إنسان واحد في سبيل الجميع. ها هو ذا مطروح عاريًا وسط الطريق الضيق، إذ يجب أن يدوسه بقدمه كل من يمر هنا، وعليه هو أن يحتمل ثقله".

وبعد أن شاهدا ذلك المنافق سأل فرجيل أحد الرهبان: هل هناك أية ثغرة يستطيعان منها مغادرة هذه الطبقة؟ فأجابه قائلًا:

"توجد ثغرة أقرب مما تتوقعان، فهناك صخرة مرتفعة تصل بين كل الوديان الموحشة، عدا هذه الصخرة المحطمة، وفي استطاعتكما أن تصعدا على ما بقي من حطامها الذي ينحدر من هنا إلى القاع.

وظل دانتي مطرقا برأسه فترة من الوقت ثم قال:

لقد خدعنا مالاكودا، ولم يشر علينا بالطريق الصحيح، ولم يخبرنا أن تلك القنطرة قد حطمت، فرد كاتالونا قائلًا:

لقد سمعت الكثير عن هذا الشيطان في بولونا ومن بين ما سمعت أن الجميع يعرفون أنه "كذاب وأبو الكذاب".

وتابع فرجيل سيره حانقًا في خطواتٍ سريعة\، وغادر دانتي هذه

الأرواح المثقلة بأحمالها مقتفيًا أثر سيده.

١٣- الشاعران يصعدان في مشقة.. ويشاهدان جحيم اللصوص

في مستهل العام الجديد، عندما يكسو الصقيع الأبيض سطح الأرض، لا يلبث طويلًا حتى ينقشع. وعندئذ يستيقظ الراعي الفقير في الصباح الباكر فلا يجد غذاءً لقطيعه، ويرى الحقول وقد اكتست بالبياض فيعود إلى بيته وهو يندب حظه. وتمر الأيام ويعود ثانيةً فيعاوده الأمل، عندما يرى أن كل شيءٍ تغير أمامه؛ لقد اخضرت الأرض من جديد في مثل هذه الفترة القصيرة، فيحمل عصاه ويسوق خرافه إلى المرعى..

وكذلك كان فرجيل يبدو متقلبًا كالجو، ما جعل دانتي يفقد الأمل، إلا أن ثقته عادت إليه فيما بعد عندما بلغا القنطرة المحطمة، واستدار الشاعر الروماني إلى دانتي وحدثه في هدوء وصفاء كعادته من قبل؛ إذ وجد بعد أن فحص طبيعة المرتفع أن في إمكانهما التقدم، فأخذ دانتي بين ذراعيه، ورفعه إلى قمة صخرةٍ ضخمة، ثم أشار إلى صخرة أخرى فوقها قائلًا:

"والآن.. اصعد إلى ذلك المكان، واختبر الصخرة، وانظر أولًا إن كانت تتحمل ثقلك".

وصعد الاثنان بمشقةٍ فوق الصخرة رويدًا رُويدًا، وكان من الواضح أن المعذبين في هذا المكان، لم يكونوا ليستطيعوا خلاصًا منه، فلم يكن هناك طريق للفرار، لشخص يرزح تحت عبء رداءٍ ثقيلٍ من رصاص. ولم يستطع الشاعران الصعود إلى القمة إلا بشق الأنفس رغم خفة فرجيل، ورغم أنه كان يدفع دانتي من صخرةٍ إلى صخرة، ولو لم يكن المنحدر أقل انخفاضًا

من ناحيتهما، ما استطاعا الوصول إلى قمته؛ ولقد وصلا آخر الأمر إلى قبة الصخرة العليا، بعد أن كادت رئتا دانتي تتوقفان عن عملهما، وبلغ به الإعياء والجهد كل مبلغ. فما كاد يصل إلى نهايتها، حتى جلس على الأرض ليسترد أنفاسه، فأنبه فرجيل على ذلك وقال:

يجب عليك ألا تركن للكسل، فلا يستطيع إنسان أن يبلغ ما يريد من رفعةٍ إذا استكان هكذا طلبًا للراحة، فبدون عملٍ لا يبقى للمرء أثر على الأرض إلا ما يبقى لدخانٍ في الهواء، أو لزبدٍ على صفحة الماء؛ فانهض ودع إرادتك تتغلب على متاعبك، فبالعزيمة الصادقة ينتصر الإنسان دائمًا في كل ميدان، إن أمامنا مرتفعًا أشق مما تتصور، علينا أن نتسلقه– فلا يكفي ما صعدنا من مرتفعات".

وعند ذلك نهض دانتي من مكانه واقفًا وتظاهر رغمًا عنه، بأنه غير متعب لخجله من فرجيل ثم قال:

"إلى الأمام، فأنا قوي صادق العزم".

واستعدا لصعود مرتفعٍ آخر أشد وعورًا، وأصعب في تسلقه من المرتفع السابق. وكان دانتي أثناء سيره يتحدث إلى فرجيل حتى لا يحس بخاذلة وضعف إرادته. وأخذا يجدان في تسلق المرتفع، حتى بلغا القنطرة التي تعلو الطبقة التالية للعذاب، وكان شيء يبدو معتمًا إلى أسفلهما فقال دانتي:

"دعنا يا سيدى نمض بعيدًا عن هذه القنطرة، حيث لا أرى ولا أدرك شيئًا".

فاستجاب فرجيل إلى رغبة دانتي فانحدرا إلى رأس القنطرة، فظهرت

طبقة العذاب أمامهما بوضوح.

ورأى دانتي إلى أسفله ثعابين مخيفة لا حصر لها، أعدت لتعذيب المذنبين في هذه الطبقة، ثم تعرف على أحد الآثمين كان يدعى فاني فوشي من أهالي مدينة بيستويا، عرف دانتي من قبل أنه كان في حياته حاد المزاج يحب سفك الدماء.

وناداه دانتي قائلًا:

"ما الذنب الذي من أجله جئت إلى هذا المكان؟".

فرفع فوشي بصره إلى الشاعر الفلورنسي، وقد غلب عليه الخجل وأجاب:

"كنت أرجو ألا تراني في هذا الموقف المخزي، ورغم ذلك فلا يمكن أن أرفض الإجابة على ما تريد. لقد أُلقِيَ بي في هذا المكان لأني سرقت الأثاث الثمين من غرفة المقدسات في كنيسة بيستويا، وحُكِمَ على آخرين ظلمًا وعدوانًا بسبب جريمتي".

وبعد أن اعترف فوشي بذنبه ثارت ثائرته، وتنبأ بالكثير من الأحزان التي سوف تحل بمدينة فلورنسا، ولقد فعل ذلك للثأر من دانتي، لأنه يعرف أن مثل هذه الأخبار ستؤلم دانتي ألمًا شديدًا.

وتابع الشاعران طريقهما فشاهدا ثعابين أخرى، يتوسطها خمسة من الفلورنسيين، لم يتحدثا إليهم لأن الثعابين كانت تنزل بهم عقابًا أليمًا مرعبًا لا يمكن تصوره.

ولقد عضت إحدى الأفاعي أحد المعذبين فاستحال بدوره إلى ثعبان، بينما استحال الثعبان إلى صورة إنسان. وكان بعض المذنبين يتحولون فجأةً إلى رمادٍ عندما لدغتهم الثعابين، وكانت هذه الأرواح جميعها تعاقب على جريمة السرقة.

واضطرب دانتي أي اضطراب، عندما رأى مواطنين من الفلونسيين بين السارقين يقاسون مثل هذا العذاب الأليم، وبكى من أجل وطنه فلورنسا في حسرةٍ وقال متهكمًا:

"أي فلورنسا! قري عينا! فما أعظمك! إن أبناءك يمثلون الجحيم نفسه".

ثم ترك الشاعران مقر اللصوص، وصعدا ثانيةً إلى الطريق المضني فوق المرتفع ليصلا إلى ماليبولج الطبقة الثامنة من طبقات الجحيم.

١٤- دانتي يستمع إلى قصة موت أوليسيوس

عقد فرجيل ودانتي عزمهما على تسلق هذه الصخور المنعزلة الموحشة، وكان الطريق وعرًا، فلم يعتمدا على السير بأقدامهما فقط، بل كانا يتشبثان بأيديهما في الصخور، حتى وصلا في النهاية إلى القمة حيث كانا يستطيعان الإشراف على ما يحدث داخل هذه الطبقة. ولرغبة دانتي في استطلاع ما يدور، انتصب واقفًا ممسكًا بكلتي يديه إحدى الصخرات خشية السقوط، فشاهد ما يشاهده الفلاح عادةً عندما يجلس فوق حافة رابية عند الأصيل، ويلقي بصره على الوادي حيث يعمل طول اليوم، فيرى الهوام تلمع في الشفق الأحمر، وهكذا في الطبقة الثامنة من الجحيم، أخذت شعلات من الشرر اللامع تروح وتجيء في أعماق الهوة، فدهش دانتي عندما

أخبره فرجيل أن كل شعلةٍ تحتوي على روحِ إنسان، فقال دانتي:

"لقد رجحت كثيرًا أن يكون الأمر كذلك.. ولكن أرجو أن تنبئني يا سيدى من يكون صاحب هذه الروح التي تحتويها هذه الشعلة، وتنقسم قسمين عند الرأس كلسانين من اللهيب".

فأجابه فرجيل قائلًا:

"في هذين اللسانين من اللهيب أوليسيوس وديوميديس اللذان يقتسمان نصيبهما من العذاب، كما كانا يقتسمان نصيبهما في ارتكاب الخطايا. إنهما يلقيان جزاءهما من العقاب في هذه الشعلة بسبب النصائح الزائفة المتكررة، التي كانا ينصحان بها الناس كذبًا في الحياة، وعلى الأخص بسبب خديعة الحصان الخشبي التي أدت إلى سقوط طروادة الحصينة".

ثم توجه دانتي بالرجاء إلى فرجيل، وتوسل إليه أن يهيئ له فرصة الحديث إلى روح هذين البطلين إذا كان في إمكانهما التكلم من خلال ألسنة اللهيب؛ فأجابه فرجيل قائلًا:

"إن توسلاتك لجديرة بالكثير من التقدير، ولكن دعني أتحدث إليهما فأنا أعرف ما تريده منهما، إذ من المحتمل أن يتجاهلا أسئلتك".

وعندما اقترب لسانا اللهيب من الشاعرين تحدث إليهما فرجيل قائلًا:

"أنتما يا من تجمعكما شعلة واحدة من اللهيب.. إذا كنت أستحق منكما أي شيءٍ عندما نظمت روائع الشعر لكما. فانتظرا قليلًا، وحدثاني كيف قضى كل واحدٍ منكما نحبه".

وابتدأ اللسان الأكبر من لساني اللهيب يتذبذب كمشعلٍ في مهب الرياح، محركًا طرفه كما لو كان لسانًا حقيقيًّا، وصدر عنه صوت يقول:

"أنا أودوسيوس. عندما غادرت جزيرة كركي لم يمنعني حبي لزوجتي بينلوبا، ولا علاقتي بإيثاكا من تحقيق رغبتي الشديدة في معرفة مجاهل العالم الذي أعيش فيه، ودراسة فضائل الإنسانية ورذائلها، وعلى ذلك ركبت البحر وبصحبتي أولئك الرفاق الذين تبقوا لي في الحياة، ركبنا سفينةً صغيرة، وانطلقنا في فضائه العريض، وشاهدت شواطئ ذلك البحر المطلة على أسبانيا ومراكش وكذلك الجزر التي يحتضنها. وكان الزمن قد تقدم بنا، وحلَّ بنا الضعف عندما بلغنا أعمدة هرقول، التي أقامها نذيرًا بالخطر يتعرض له من يفكر في اجتيازها، وهناك خاطبت رفاقي قائلًا:

"أيها الإخوان! لقد بلغنا هذه الحدود الغربية من الأرض، بعد كثيرٍ من الأخطار، ولم يتبق لنا من العمر إلا قليل، فدعونا نقض هذا القليل في معرفة شيءٍ عن هذا العالم، غير المأهول بالسكان، الذي يقع وراء الشمس، واذكروا أنكم بشر، ولم تخلقوا بهائم عجماء، بل عليكم أن تقتفوا أثر الفضيلة والمعرفة.

"وبهذه الكلمات القصيرة ألهبت حماس زملائي، وشجعتهم على متابعة الرحلة، حتى إنني لم أستطع بعد ذلك أن أثني عزمهم عنها. وحولنا مقدم السفينة تجاه الغرب، وأخذنا نضرب بمجاذيفنا في مياه البحر، ثم غيرنا وجهتنا ناحية الجنوب، وخلفنا وراءنا نصف الكرة الشمالي، وبعد أن قضينا خمس ليال، وخمسة أيام في رحلتنا هذه، لاح لنا من بعيد جبل هائل معتم،

أكثر ارتفاعًا من أي جبلٍ آخر وقعت عليه عيناي، فتهللت وجوهنا بالبشر في أول الأمر، ولكن سرعان ما انقلب سرورنا إلى حزن، عندما هبت عاصفة عاتية من هذا الجبل، دهمت سفينتنا فأدارتها ثلاث مرات وسط البحر الثائر، ثم غاصت مقدمتها وارتفع مؤخرها، ثم أطبقت علينا مياه البحر من كل جانب وقضى علينا".

وعند ذكر هذه الكلمات توقفت عن الكلام شعلة اللهيب التي تضم روح أوليسيوس، وبعد فترة وجيزة تركت الشاعرين، وذهبت إلى سبيلها.

١٥- جويدو المونتفيلتروي(٢١)

بعد أن تركتهما شعلة اللهيب التي تحتوي على روحي أودوسيوس، وديوميديس، اقتربت منهما روح أخرى، استرعت انتباههما عندما صدر من رأسها صوت غامض، في صورة كلماتٍ حبيسة كانت لا تجد لها مخرجًا، ثم وجدته فتحركت شعلة اللهيب، كما لو كانت لسانًا حقيقيًّا وأخذت تقول:

"أنت يا من سمعتك تتكلم الآن.. لا ترفض أن تقف لتتحدث إليّ، ولو أنني جئت متأخرًا بعض الشيء!. وإذا كنت قد حضرت لتوك إلى هذا العالم المظلم من أرض اللاتين الجميلة، فأخبرني إذا كانت رومانا(٢٢) في حربٍ أم في سلامٍ أنا من سكان الجبال هناك بالقرب من منبع نهر التيبر".

فاستجاب دانتي إلى رغبتها وحدثها كثيرًا عن رومانا، وتوسل إليها في مقابل ذلك أن تخبرهما من تكون، فعادت شعلة اللهيب ترغى وتزيد من

(٢١) نسبةً إلى مدينة مونتفليترو

Romagna (٢٢)

جديد ثم أخذت تقول:

"إنني ما كنت أخبرك بشيءٍ قط، لو عرفت أني أتحدث إلى إنسانٍ في استطاعته العودة إلى العالم، ولكنني أعرف تمامًا أنه لا يوجد إنسان قط، حضر إلى هذا المكان، ثم عاد حيًّا إلى دنياه، لذا فسأتكلم في صراحة:

"لقد كنت من رجال الحروب، ثم صرت من رجال الدين، ولبست ملابسهم مؤملًا في التكفير عما ارتكبت من خطايا، وكان من الممكن أن يكون في ذلك تكفير عن كل ما ارتكبت، لولا أن تدخل يونيفاش لعنة الله عليه!".

"إنه هو الذي زين لي الخطيئة ثانيةً فوقعت فيها، وسوف أقص عليك هذا بالتفصيل..".

أنا جويدو من مدينة مونتفيلترو، كانت تغلب على طباعي صفات الثعلب لا الأسد، ولقد عرفت ومارست ضروب الغدر والخداع حتى ذاع صيتي في هذا الميدان، وطبقت شهرتي الآفاق. وعندما بلغت من العمر حدًّا ينبغي فيه على المرء أن يفكر قليلًا في دنياه، وكثيرًا في آخرته، اعترفت بخطئي، وندمت على ما فعلت وأسفت لما صدر عني من أعمال، واخترت لنفسي حياة الرهبان.. ولكن ظني غاب عندما أعلن بونيفاس، الذي يلقب حقًّا بأمير المنافقين، أعلن الحرب لا على الخونة المارقين، بل على أعدائه من أبناء دينه.

لم يقم أي اعتبارٍ للرداء المقدس الذي أرتديه، واستدعاني وسألني النصيحة، كيف السبيل إلى تحطيم قلعة باليسترينا[٢٣] لأنه كان يعتقد أنه

Palestrina (٢٣)

في إمكاني مساعدته لسابق خبرتي بالغدر والنفاق، فرفضت بادئ الأمر أن أجيبه إلى طلبه لما في ذلك من تهور، ولعلمي أنه يطلب مني أن أمده بنصيحة السوء، غير أنه قرأ ما يدور بخلدي فقال:

"لا تدع الشك يتطرق إلى ذهنك، وسوف أغفر لك ذنب كل خطيئة ، فأنت تعلم أن بيدي مفاتيح الفردوس، أدخل فيها من أشاء وأوصدها في وجه من أشاء".

وبدا لي حين سمعت ذلك، أنه من الخير أن أتكلم فقلت:

"إنني أعلم أن نصيحتي هي نصيحة السوء يا أبتاه، وما دمت قد وعدت بأن تغفر لي ذنبي الذي سأرتكبه الآن، فلا مناص من أن أقدم إليك هذه النصيحة: اقطع العهود لرجال باليسترينا بالكثير من الأفعال، ولا تف بوعودك!".

وبعد أن وافاني القدر المحتوم، جاء القديس فرنسيس ليبارك روحي عند الموت، وفي نفس الوقت حضر شيطان رجيم أسود وقال للقديس:

"لا تأخذه.. لا تخدعني هكذا! إن مقره أعماق الجحيم للنصيحة الزائفة التي قدمها من قبل. ومنذ تلك اللحظة وأنا أقيم بجواره؛ لأن من ينوى ارتكاب الخطيئة لا يعد تائبًا، ومن لا يتوب عن خطيئةٍ ارتكبها لا تغفر له، وعلى ذلك فلا مغفرة له، بل ستحل به اللعنة إلى الأبد".

وا أسفاه.. كم رثيت له عندما أمسك بي وتكلم هكذا:

إنك لم تعتقد أنه كان في استطاعتي أن أناقشه هذه المناقشة البارعة.

ثم حملني إلى قاضي الجحيم، فألقى بى مينوس في هذا المكان حيث تكتنفي النيران وتستولى عليّ الأحزان".

وهكذا أتم جويدو قصته، ثم أخذت شعلة اللهيب التي تحتوي روحه تبتعد وهي تتململ وتتلوى.

١٦- عمالقة جهنم

تابع فرجيل ودانتي طريقهما، بعد أن تركا مستشاري السوء، فشاهدا الحلقتين الأخيرتين من منطقة ماليبوج، حيث يقيم المزيفون الذين كانوا يبذرون بذور الشقاق، وتكلم دانتي إلى بعضهم وكان يود لو تمهل ليتحدث إلى غيرهم إلا أن فرجيل زجره قائلًا:

"إن مثل هذه الرغبة ما كان يجب أن تصدر عنك".

وأخيرًا وبعد أن شاهدا كل ما كان في ماليبوج بوادي الحلقات الكريهة، تركاه وصعدا إلى الجسر الذي يفصل بينهما وبين الطبقة التاسعة وهي أعمق طبقةٍ من طبقات الجحيم. وسارا في هدوء، وكان الجو معتمًا.. فلم يكن حالك الظلمة ولا ساطع النور، ولم يتبين دانتي من طريقه إلا القليل أمامه، وعلى حين فجأة سمع صفير بوق يدوي في الفضاء، يفوق دوي الرعد القاصف.. لم يكن في إمكان رولاند أن يحدث من بوقه دويًّا أفظع، عندما مني شارلمان بالهزيمة الساحقة.

وسدد دانتي بصره وجهة المكان الذي صدر عنه الصوت، فخيل إليه بعد قليل أنه يرى قبابًا عالية، فاستفسر من فرجيل قائلًا:

"أي مدينةٍ هذه التي أرى يا سيدى؟.

فأجابه فرجيل قائلًا:

"إنك لا تزال بعيدًا عنها كل البعد ولا يمكنك أن ترى الأشياء بوضوح، إنك تخلط بين الأشياء".

ثم أخذه برفقٍ من يده، وتابع حديثه قائلًا:

"وقد تبدو لك الحقيقة أقل غرابةً مما تصورت، عندما نصل هناك، اعلم أن هذه ليست قبابًا، إنهم عمالقة أشداء يقفون في أعمق حفرة، وقد ظهر منهم نصفهم الأعلى".

وكما يتلاشى الضباب رويدًا رُويدًا، فتتضح المرئيات من خلفه تدريجيًّا، كذلك أخذ دانتي من أشكال المردة العمالقة بوضوح عندما اقتربا من حافة هذه الهوة السحيقة.

وقال دانتي لنفسه:

"حقًّا لقد أحسنت الطبيعة صنعًا، عندما كفت عن تصوير مثل هذه المخلوقات الوحشية".

وكان نمرود أول من رآه الشاعران بوضوح، فقد ظهر وجهه وكتفاه فوق مستوى الشاطئ، أما ساعداه ونصفه الأسفل حتى وسطه فلم يظهر منها شيء.

ولم يكن في استطاعة ثلاثةٍ من الرجال الأشداء طوال القامة، إذا وقف أحدهم على كتف الآخر، أن يبلغوا شعر رأسه، لأن طوله من وسطه حتى أعلى رأسه كان يبلغ ثلاثين شبرًا كاملة.

وما إن اقترب الشاعران من نمرود حتى فغرقاه الضخم، وصدرت عنه هذه الكلمات الغريبة:

"رافيل– ماي– أميش– زابي– ألمى!".

فصاح به فرجيل قائلًا:

"أيتها الروح الحمقاء ألا تتناولين نفيرك، وتنفسين به عن غضبك؟ انظري.. ها هو ذا معلق حول صدرك الضخم!".

ثم التفت إلى دانتي وقال:

"دعنا نمض ونتركه، فليس من المجدي أن نتحدث إليه، لأنه لا يفقه لغة الأحياء، وليس في استطاعة أحدٍ أن يفهم ما يقول".

ثم انحرفا إلى الشمال سارا على حافة الهاوية، وما هي إلا لحظات حتى ظهر لها مارد آخر، أكثر وحشيةً وأكبر ضخامةً، وكانت ذراعه اليمني مشدودة خلف ظهره، وذراعه اليسرى مشدودة إلى الأمام بسلاسل، التفت حول جسمه الضخم ثلاث مرات.

قال فرجيل:

"لقد حاول أفيالتيس هذا المخلوق المتجبر أن يتحدى كبير الآلهة جوبيتر العظيم فلقي جزاءه الحق".

ثم سأله دانتي عما إذا كان من الممكن أن يرى العملاق برباريوس فأجابه فرجيل:

إنه بعيد عنا مكبل بالأغلال، إنه يشبه أفيالتيس من جميع الوجوه إلا

أنه أكثر وحشية. وسوف ترى أنتايوس قريبًا منا، طليقًا من غير قيود، إنه يستطيع الكلام وسوف ينقلنا إلى الأعماق".

وما إن سمع العملاق أفيالتيس هذا الكلام، حتى هزه الغضب هزًّا عنيفًا، كما يهز الزلزال البرج العالي؛ وكاد يغشى على دانتي من شدة الخوف، لولا أن السلاسل التي يرسف فيها العملاق جذبت نظره إليها، فقاده فرجيل حتى وصلا إلى أنتايوس الذي كان يبدو أكثر ضخامةً من الآخرين، وكان جسمه يعلو خمسة أقدام فوق مستوى حفرة العذاب عدا رأسه.

وصاح به فرجيل:

"أيها الجبار الضخم، خذ بيدنا إلى أعماق الحفرة فوق مياه كوكيتس المتجمدة؛ لا تتجاهلنا، إننا لا نبغي مكانًا آخر، ولا نسألك الذهاب إلى تبيتوس أو تيفون، لا تقلب شفتيك احتقارًا؛ فإن هذا الرجل (مشيرًا إلى دانتي) لا يزال على قيد الحياة، وباستطاعته أن يحتفظ لك بالذكرى الطيبة على وجه الأرض".

ومن ثم مد أنتايوس يديه، وأخذ فرجيل فضم دانتي إليه، وكان العملاق يبدو للشاعرين، وقد انحنى عليهما برأسه، كبرجٍ مائل على وشك السقوط. وكانت لحظة رهيبة ارتعدت لها فرائص دانتي مرةً ثانيةً وتمنى لو أنه انتقل إلى المكان الجديد بأية وسيلةٍ غير هذه، وانحنى العملاق وأوصلهما في رفق إلى قاعدة الهاوية، ثم استوى واقفًا مرةً أخرى كسارية سفينة في البحر ترتفع وتنخفض مع الموج في جوٍّ عاصف.

١٧- بحيرة كوكيتوس المتجمدة

وقف فرجيل ودانتي في قاع الحفرة العميقة المظلمة، تحت قدمي العملاق، ينظران إلى السدود المرتفعة التي تحيط بالحفرة، وإذا بهما يسمعان صوتًا يقول:

"احترسا.. وحذار أن تطأ أقدامكما رؤوس إخواننا المحزونين المتعبين!".

وعندما سمع دانتي هذه الكلمات التفت فإذا به يرى إلى أمامه وتحت قدميه بحيرة متسعة من جليد صلد، تبدو كأنها من زجاجٍ خالص لا يشبهها أو يقاس بها نهر الدانوب الذي يجري في النمسا، أو نهر الدون تحت سمائه الباردة، في كثافة طبقة الجليد التي تغطيها!

تلك هي بحيرة كوكيتوس المتجمدة.. التي كانت ثلوجها سميكة حيث لا تتأثر إذا سقطت عليها الجبال الشامخة.

لقد ألقي في هذه البحيرة المتجمدة بكثيرٍ من المعذبين، لا يظهر منهم فوق الماء إلا رؤوسهم، وكانت أسنانهم تصطك من البرودة، وإذا تجمدت قطرات الدمع على أجفانهم.

أخذ دانتي يحملق فيما يرى حوله من مناظر مخيفة، ثم تابع السير قدمًا برفقة مرشده، وهو يرتعد في وسط هذا البرد القارس اللانهائي.

وبينما دانتي يسير في طريقه –سواء أكان ذلك لحسن طالعه أم لمحض المصادفة– اصطدمت قدماه بروح برزت من الثلج فصاحت هذه، وهي تبكي وقالت:

"لم تدوسني؟ ولماذا تزعجني؟.. اللهم إلا إذا كنت قد حضرت لتزيد في عذابي من أجل مونتابرتي[٢٤]".

وعندما سمع دانتي هذه الكلمات، اعتراه شك مفاجئ، لمن تكون هذه الروح، وقال لفرجيل:

"تمهل يا سيدي حتى أتحدث إليها، وسوف أسرع الخطى بعد ذلك بالقدر الذي تريد".

وقف فرجيل صامتًا وتحدث دانتي إلى ذلك المعذب فقال:

"من أنت يا من تلعن الآخرين هكذا؟ إذا كنت تريد أطيب الذكر في الحياة الدنيا، فمن الخير أن تتحدث إليّ، فسوف أعود إليها وأحيي ذكراك لأنني ما زلت حيًّا".

فأجابته الروح قائلةً:

"أنا لا أرغب في ذلك- بل أريد أن أكون نسيًا منسيًّا على ظهر الأرض، فامض في سبيلك، ولا تؤلمني أكثر من ذلك".

امتلأ دانتي غضبًا، والرغبة لا تزال تتملكه لمعرفة صاحب هذه الروح. فانحنى وأمسك المذنب من شعره وهدده إن هو لم يذكر اسمه. فصاح به المذنب قائلًا:

"حتى إذا اقتلعت شعري، فلن أجيبك!".

ولم يزد على ذلك شيئًا، وظل يتأوه ويبكي من شدة الألم، وعند ذلك

---

(٢٤) Montaperti

نادته روحٍ أخرى وقالت:

"ما الذي يؤذيك يا بوكا[٢٥]، ألا يكفي أن نسمع صرير أسنانك، أمن الضروري أن تزمجر هكذا؟.. أي شيطانٍ تقمصك..؟".

وعندما عرف دانتي أن ما اعتقده كان صوابًا توجه إلى المذنب قائلًا:

"ألا لعنة الله على كل خائنٍ لوطنه! لم تشأ أن تتكلم، لئلا أنقل أخبارك إلى الأرض فتبقى سيرتك عارًا إلى الأبد!".

وعرف دانتي أن تلك الروح روح بوكا، الذي لعب دور الخائن لوطنه في موقعه مونتابرتي العظيمة بالقرب من فلورنسا. فعندما كان النصر معلقًا في يد القدر، طعن بوكا حامل العلم في كتيبته، فارتبكت صفوفهم وسحقهم الأعداء.

لقد غضب دانتي لما فعله ذلك الشقي، فاحتقره، ومن ثم عرف أن خونة الأوطان يعذبون في بحيرة كوكيتوس المتجمدة هذه، وأن بعضهم يعذب عذابًا يفوق عذاب الآخرين، وأن وجودهم في الثلج على أعماق مختلفة يتفق وجسامة خيانة كلٍّ منهم.

وترك السائحان بوكا، وشاهدا على مسافة قريبة منه اثنين من المعذبين شدت رأس كلٍّ منها إلى الآخر بإحكام، حتى أصبحتا متشابكتين، وكان الحقد يملأ قلب كلٍّ منهما على زميله ولو أن أحدهما كان أشد كرهًا من الآخر، فنظر إليه دانتي وقال:

---

(٢٥) Bocca

"حدثيني... روح من كنت، ولماذا ينهش الغضب قلبك؟ لعلني أستطيع أن أصلح من أمرك فأنشر إساءة من أساء إليك في الدنيا".

عند ذلك رفع المذنب الغاضب رأسه قليلًا، وبدأ يقص حكايته:

"إنك تسألني أن أجدد أحزاني القاتلة، إن مجرد التفكير فيه يثير أحزاني قبل أن أبدأ كلامي، وإذا كانت كلماتي تجلب العار في الدنيا لهذا الخائن الذي تراه أمامي، فسوف أحتمل الحزن وأتحدث إليك.

"لست أدري من أنت.. وكيف حضرت إلى هذا المكان، غير أنه يبدو لي من حديثك أنك فلورنسي... أنا الكونت أوجولينو إلبيزي(٢٦)، وكان روجييري هذا رئيسًا للأساقفة في نفس المدينة، لقد حبب إليَّ الخيانة، فلقيت حتفي في هذا المكان، أما كيف تم ذلك فلا حاجة إلى ذكره، وأما عن إيذائه لي فيكفي أن أصف لك الطريقة التي لقيت بها حنفي.. لقد أودعت السجن بأمره في قلعة مخيفة ومعي أولادي الصغار، ورأيت القمر مرارًا.. رأيته يكتمل، ورأيته يتناقص من خلال النافذة الضيقة في مدننا، عندما كنت أنام نومًا متعبًا، وحلمت حلمًا صادقًا يكشف لي حجب المستقبل. وعندما استيقظت وجدت أولادي الصغار يبكون جوعًا، ويطلبون الخبز. فتشاءمت وبكيت، وإذا لم يبك الإنسان لمثل هذا المنظر، فأي شيءٍ يبكيه؟

واقتربت الساعة التي يقدمون لنا فيها الطعام، وإلى أسفل سمعت صوت مفتاح يغلق الباب على البرج المخيف.. وبناءً على أمرٍ صدر من

(٢٦) نسبةً إلى بيزا Pisa

روجييري لم يقدم إلينا طعام في ذلك اليوم؛ وكنا قد قضينا ستة أيام من قبل دون طعام، وبين اليوم الرابع والسادس أخذ أولادي يتساقطون الواحد بعد الآخر صرعى تحت قدمي، وبعد يومين آخرين، ترفقت في الأحزان، فسقطت جثةً هامدة".

وتوقف أوجوليتو عن الكلام، وصب دانتي جام غضبه ولعناته على مدينة بيزا التي قضت على أطفال أبرياء بمثل هذا العذاب الأليم.

وأخيرًا تقدم السائحان في طريقهما، وشاهدا معذبين آخرين مطمورين تحت الثلج، وسمع دانتي أسماء بعضهم وما اقترفوا من آثام، وكان المذنبون من الخونة هنا، يعذبون كلهم في الجليد بالطريقة ذاتها.

١٨- لوسيفر وطبقة الخونة السفلى

والآن لقد بلغ الشاعران ذلك المكان السحيق، في أعمق أعماق الجحيم، حيث غاصت تحت الجليد أرواح الذين حلت عليهم اللعنة؛ وكانت هذه الأرواح المطمورة تبدو كأنها قش داخل زجاجٍ سميك: بعضها مائل. وبعضها منتصب، ورؤوسها أو أقدامها إلى أعلى، وبعضها منحن على شكل قوس، ولقد غاصت جميعها في الثلوج عن آخرها.

ثم أمر فرجيل رفيقه دانتي أن ينظر إلى الأمام، فرأى شيئًا ضخمًا يهب منه ريح ثلجية قارسة، كان كطاحونة هواء ترى على بعد معتمة خلال الضباب أو في الليل الهيم.

وعند ذلك انتحى فرجيل جانبًا حتى لا يحجب بصر دانتي عن الرؤية ثم قال:

"انظر.. ها هو ذا لوسيفر! فيجب أن تتذرع بالشجاعة التي ما بعدها شجاعة".

وعندئذٍ خاف دانتي خوفًا شديدًا وخانته أنفاسه، واستولى عليه فزع لا يمكن وصفه.. لقد رأى أمامه لوسيفر حاكم هذه المملكة السفلى... رآه وقد دفن من أسفل صدره في الجليد.. وكان ضخمًا كل الضخامة، حتى إن أي إنسانٍ ضخم مهما بلغ حجمه لا يقارن بحجم ذراعٍ من ذراعيه. قد كان جميلًا بقدر ما هو الآن دميم، وذلك بعد إن عصى خالقه وعصاه، فإن كان هذا القول صدقًا، أمكننا أن نقول: إنه "أصل لكل الشرور".

وقد عجب دانتي عندما رأى أن هذا المخلوق البغيض ثلاثة وجوه يحملها رأس واحد– وجه إلى الأمام ووجه على كل كتفٍ من كتفيه؛ وكان الوجه الأوسط قرمزي اللون، أما الأيمن فكان نصفه أبيض ونصفه الآخر أصفر؛ وكان الأيسر أسود كجلد الكوش، وكان تحت كل وجهٍ من هذه الوجوه، جناحان كبيران أكبر من شراع أية سفينة! وكانت هذه الأجنحة تشبه أجنحة الخفاش لا ريش فيها، وكان لوسيفر يخفق بها في حركة مستمرة، فتسبب هبوب ثلاث رياح ثلجية متتالية تجمد بحيرة كوكيتوس كلها. وكان هذا المارد يبكي فتتساقط الدموع من عيونه الست، وتنحدر على ذقونه الثلاث مع الزبد الناتج عن ثورة غضبه، وكان يقبض في كل فمٍ على مذنبٍ من المذنبين بعضهم بأسنانه. وكان هؤلاء المذنبون الثلاثة يقيمون معه في أسفل طبقه بالجحيم.

وقال فرجيل لدانتي:

"إن هذه الروح التي انغرست رأسها في فمه الأمامي، وأخذت تكافح برجليها المتدليتين، وتعاني أقسى ضروب العذاب، بالتمزيق والقضم، هي روح يهوذا الأسخريوطي، والروح التي في الفم الأسود هي روح بروتوس، انظر كيف يكافح دون صياح! أما هذه الروح النحيلة فهي لكاسيوس.. والآن وقد بدأ الليل يرخي سدوله من جديد، هيا بنا، لقد رأينا هنا كل شيء".

وعندما أصدر فرجيل أمره بالرحيل، طوق دانتي بذراعيه، وعندئذ رفع لوسيفر أجنحته العريضة في الهواء، فأمن الشاعران جانبه، وتمكن فرجيل من أن يمسك بالشعر الكثيف الذي يكسو جنب هذا المارد، ثم أخذ يهبط إلى أسفل، متخذًا من هذا الجسم الضخم سلمًا، وعندما بلغ الشاعران نحو منتصف الطريق، في اتجاه هذا المارد، استدار فرجيل حيث كان الطريق صعبًا كلفه جهدًا ضخمًا، وعناءً شديدًا، فحمل دانتي على كتفيه، وبدا كما لو كان يصعد ثانيةً إلى أعلى. وبعد فترةٍ وجيزةٍ بلغ فجوةً في الصخرة، فأنزل حمله من فوق كتفيه، ثم قال وهو يلهث كمن أعياه الجهد:

"يجب أن نغادر هذا الشر المستطير عن طريق هذا المرتقى".

ونظر دانتي إلى أعلى، وكم كانت دهشته عندما رأى فوقه رجل ذلك المارد الذي كان يشاهد رأسه منذ قليل؛ وقد زاد فرجيل في دهشته عندما استحثه أن يفيق ويسرع الخطى إلى الأمام فقد أسفر الصباح.

فقال دانتي:

أرجو أن توضح لي يا سيدي: أين الجليد؟ وكيف انقلب لوسيفر رأسًا على عقب؟ وكيف يتسنى للصباح أن يدرك المساء في مثل هذه الفترة

القصيرة؟... إني في حيرةٍ تامة من أمري...

فأجابه فرجيل: لقد تخطينا مركز الكرة الأرضية، ولذلك فأنت ترى الآن قدمي لوسيفر، وترى الصباح يضيء من فوقك، ولكن منذ لحظةٍ وجيزةٍ كانت الدنيا ظلامًا، وكانت رأس لوسيفر تمتد إلى أعلى، إننا الآن في نصف الكرة الآخر، وما زال (إبليس) مربوطًا حيث كان من قبل. وبينما تسطع الشمس في نصف الكرة الأرضية، يسود الظلام نصفها الآخر".

وتدفق جدول صغير من الكهف المظلم الذي جلسا فيه طلبًا للراحة، واتخذ مجراه عبر الصخور، وكان الطريق شديد الانحدار ملتويًا، اتبعه الشاعران وسارا فيه وهما يتجاذبان الحديث، فرجيل في المقدمة ومن ورائه دانتي؛ ثم شاهدا فتحةً مستديرةً، وتكشفت السماء من فوقهم فنفذا من خلالها ليشهدا النجوم من جديد.

المطهر

١- سفح جبل المطهر

ترك داتني وفرچيل الهوة الجهنمية وبذلك اجتازا في سلامٍ المرحلة الشاقة من رحلتهما الطويلة، ومن ثم آن لهما أن يسلكا طريقًا أكثر اعتدالًا، للوصول إلى الدائرة الأبدية الثانية.. إلى جبل "المطهر" حيث تطهر الروح البشرية نفسها من كل خطيئة، فتستحق الصعود إلى السماء.

ولما خرج الاثنان من جو جهنم الصاخب المميت، انشرح قلبهما المتعب عند رؤية الفجر الأزرق الجميل في السماء الصافية. ورغم اقتراب النهار، فقد ظلت الكواكب تتلألأ. الزهرة، برج الحوت أو برج السمكتين، وأربعة كواكب أخرى ذات بريقٍ خاطف.

وبينما كان دانتي يقف مبتهج النفس، وهو يستنشق عبير الهواء العليل، رأى إلى جواره رجلًا في كامل صحته، توحي طلعته بالإجلال والاحترام.. ذا لحيةٍ طويلة، وخطها الشيب، يسطع على وجهه ضوء النجوم، ورآه دانتي بوضوح، كما لو كان يقف في وضح النهار.

وصاح الرجل في السائحين، وقد تجهم وجهه قائلًا:

"أيها الهاربان من السجن الأبدي، من أنتما؟ من كان يرشدكما ويهديكما السبيل، عندما أقدمتها مع الليل البهيم اللانهائي، الذي يغمر الوادي الجهنمي بظلمته؟.

"أيها الملعونان.. أهكذا تعبثان بتعاليم جهنم فتهربان إلى هنا.. إلى هذه الصخور التي أقيم فيها".

فأشار فرجيل إلى دانتي أن يخر ساجدًا في خشوع، فإن من يتحدث

إليهما هو كاتو **Cato** حارس مدخل المطهر، ثم خاطبه فرجيل قائلًا:

"لقد هبطت سيدة من السماء، وتوسلت إليَّ أن أنقذ هذا الرجل الذي لا يزال على قيد الحياة، فأسرعت إليه فوجدته في الرمق الأخير، ولم تكن هناك وسيلة لإنقاذه، سوى أن نعبر هذا الطريق، وقد أريته جميع المذنبين، والآن أرى أن تهيئ له السبيل ليرى هذه الأرواح التي تتطهر من خطاياها تحت إشرافك، ولتساعدني الفضيلة في عليائها على إتمام هذه الرحلة إنه يبحث عن الحرية، فهلا تفضلت ورحبت بمقدمه.

"إننا لا نعبث بتعاليم السماء الأبدية كما تقول، لأنه لا يزال على قيد الحياة، وأنا من نزلاء طبقة لمبو (عالم الأرواح الضالة). فتفضل علينا بحق المرور عبر طبقاتك السبع".

فأجابه كاتو قائلًا:

"ليس ثمة حاجة لأن ترجواني، ما دامت مرشدتكما ملكة من السماء، بل يكفي أن تطلب المرور باسمها فقط. اذهب الآن وعليك أن تلف هذا الرجل بالغاب الأملس، ثم اغسل وجهه حتى يزول ما عليه من أقذار، إذ ليس من اللائق أن يمضي أمام راعي السماء الملائكي الأول وعلى عينيه أيه غشاوة، هناك حول قاع هذه الجزيرة حيث يتلاطم الموج بالشاطئ، تنمو الأعشاب على أرضها الرخوة، ولا يمكن لنباتٍ آخر أن ينمو بها.

ولكن لا تعودا إلى هنا؛ فإن الشمس التي تشرق الآن ستكشف لكما طريقًا أسهل لصعود الجبل".

وحين انتهى كاتو من حديثه اختفى من أمامهما، فنظر دانتي إلى

مرشده وقال له:

"اتبعي يا بني، ودعنا نعد قليلًا إلى الوراء، فمن هذا الطريق ينحدر السهل إلى الشاطئ".

وعندما بدأ ضوء الفجر يمزق الخيوط الأخيرة من ظلام الليل، رأى الشاعران عن بعد مياه البحر تعلو وتهبط، فتابعا السير في ذلك السهل الموحش، حتى وصلا إلى مكانٍ لا يزال الندي يعلوه لرطوبة الجو، فبسط فرجيل يديه ووضعهما على العشب، ثم بللهما بالندي، وأخذ يمسح برفقٍ وجه دانتي، حتى كشف عن لونه الحقيقي الذي كان يخفيه دخان جهنم. ثم سارا في طريقهما إلى الشاطئ المنعزل، وهناك لف فرجيل وسط دانتي بالغاب الرطيب، كما أمره كاتو أن يفعل، وما إن قطع فرجيل هذا الغاب (غاب التواضع) حتى نبت مكانه غاب آخر.

وتمهل الشاعران قليلًا على الشاطئ في انتظار طلوع النهار، وعلى حين غرةٍ شاهد دانتي جسمًا يشع ضوءًا، يمخر عباب البحر بسرعةٍ تفوق سرعة أي طائر، ويزداد حجمه ويشتد ضوؤه، ويرفرف على جنبيه شيء ناصع البياض، وبعد قليلٍ ظهر آخر أسفله، فالتفت دانتي إلى مرشده يريد إيضاح، فظل فرجيل صامتًا وكأنه لا يدري ماذا يقول، إلا أنه حين تبين حقيقة البياض بوضوحٍ، وانكشافه عن جناحين، صاح قائلًا:

"اركع! اركع فورًا واضمم يديك إلى صدرك، إنه ملاك من عند الله. سوف ترى هؤلاء الملائكة بعد ذلك تباعًا. أترى كيف يحتقر الوسائل التي يستعملها البشر، إنه لا يستعمل مجاذيف أو أشرعةً في رحلته الطويلة، بل

يعتمد على أجنحته فقط!".

وأخذ الملاك يقترب رويدًا رويدًا، وكلما ازداد قربًا ازداد بريقًا، فلم تحتمل عينا دانتي هذا البريق، واضطر أخيرًا أن يطأطئ رأسه. ثم لم يلبث الزورق أن اتجه ناحية الشاطئ بسرعة، حتى بدا وكأنه لا يمخر عباب الماء، بل يتحرك في خفةٍ على صفحته، وفي مؤخرة الزورق وقف ربانه السماوي تشع الرحمة من وجهه، وكان يجلس في داخله ما ينيف على مائة روحٍ ترتل معًا هذا النشيد:

"لما خرج بنو إسرائيل من مصر..".

وعندما اقترب الزورق من الشاطئ ذكر الربان اسم الله، فاندفعت الأرواح إلى الشاطئ، ثم غادر المكان عائدًا أدراجه في سرعةٍ خاطفة.

كانت أشعة الشمس الذهبية تلهب الأرض في ذلك اليوم، ووقف الوافدون إلى هذا الشاطئ يحملقون فيما حولهم، كما لو كان المكان غريبًا عليهم، وأخيرًا التفتوا إلى الشاعرين وقالوا:

"إن كنتما تعرفان الطريق إلى الجبل فأريانا إياه".

فأجابهم فرجيل إنه ورفيقه غريبان مثلهم على هذا المكان. وبينما كان فرجيل يتكلم أخذت الأرواح تحدق في دانتي، فعرفت من أنفاسه أنه لا يزال على قيد الحياة، فتملكهم العجب أشد العجب واقتربوا منه متناسين تمامًا المهمة التي قدموا من أجلها إلى هذا المكان. وعرف أحدهم دانتي فتقدم إليه يعانقه في شوق، وتقدم دانتي إلى صاحبه يعانقه. ورفع ذراعيه ثلاث مرات ليعانق روح صديقه لكن دون جدوى، فقد أخذت ذراعاه

تضربان في الهواء... وعندئذ عرف الشاعر الفلورنسي أن الأرواح ليس لها جسد إلا في مظهرها فقط.

كانت هذه الروح روح كاسيلا الموسيقي الذي كان صديقًا لدانتي في الحياة الدنيا، فتوسل إليه دانتي قائلًا:

"إن كانت حياتك في الآخرة لم تغير من عبقريتك يا كاسلا، فأنشدني قليلًا لتهدأ نفسي التي أضنتها هذه الرحلة حتى بلغنا هذا المكان".

وعند ذلك أخذ كاسلا يشدو بأعذب الألحان، قطعةً شعريةً من وضع دانتي:

"أيها الحب الذي يتحاور مع عقلي"

وفيما هو يغني، أخذ فرجيل وتابعه، والأرواح التي كانت معهم، أخذوا جميعا بسحر الغناء فوقفوا وكأن على رؤوسهم الطير، لا يشغلهم عن الموسيقى والغناء شاغل.

وبينما كان الجميع يرهفون أسماعهم للغناء، حضر إليهم الراعي المبجل كاتو وصاح فيهم قائلًا:

"أيتها الأرواح المتقاعسة.. ما هذا الإهمال.. أسرعوا إلى الجبل حتى تزيلوا عن كواهلكم تلك الخطايا التي تحجب الله عنكم".

فتوقف كاسيلا عن الغناء. وركضت الأرواح إلى الجبل في سرعةٍ فائقة، وهي لا تلوي على شيء، ولحق بهما السائحان بنفس السرعة.

٢- دانتي يقابل مانفريد وبيلاكا عند مدخل المطهر

بعد كلمات كاتو اللاذعة، يمم الشاعران وجهيهما شطر الجبل الشامخ الذي يرتفع عاليًا في البحر، وقد توهجت شمس الصباح الحمراء من خلفهم، وسقطت أشعتها على قوام دانتي، فامتد أمامه ظله على الأرض. ولم يكن لفرجيل ظل يُرى، فخفق قلب دانتي خشية أن يكون قد افتقد مرشده العطوف، فأدار وجهه فإذا بفرجيل يسير إلى جواره ويهدئ من روعه قائلًا:

"لماذا لا تثق بي؟ يجب أن تتأكد أني معك، ولن أتخلى عنك أبدًا، إن جسدي الذي كان فيما مضى يلقي على الأرض ظلًا، أصبح الآن يرقد مدفونًا في الثرى بإيطاليا الجميلة، أما روحي وهي التي تراني عليها، فلا ظل لها".

وأخذ الاثنان يجدان في السير، بينما كان فرجيل يتابع حديثه حتى وصلا إلى قاعدة الجبل، فنظرا إلى أعلى فرأيا قمته تنحدر انحدارًا شديدًا، حتى إن تسلقها كان أمرًا مستحيلًا، فتوقف فرجيل وقال متسائلًا:

"من يستطيع أن يدلنا على الجانب الذي تعلو فيه هذه القمة علوًّا هينًا، حتى يستطيع من لا أجنحة له أن يرتقيها؟".

وفيما هو يتكلم، رأى دانتي مجموعةً من الأرواح تشق طريقها إليهما من الجهة اليسرى، تتقدم في بطءٍ شديد، حتى ليخيل للناظر إليها أنها لا تتحرك، وعند ذلك صاح دانتي قائلًا:

"انظر يا سيدى! إذا لم تكن تعرف أنت الطريق، فنستطيع أن نسترشد

برأي هؤلاء القادمين علينا".

واتجه السائحان ناحية الأرواح والسرور يملأ قلبهما، ولما اقتربا منها صاح بها فرجيل قائلًا:

"أيتها الأرواح التي سعدت آخرتها، أيتها الأرواح المختارة، أستحلفكم بحق السلام الذي تنشدونه، أن تدلونا على المكان الذي ينحدر فيه هذا الجبل انحدارًا هينًا، حتى يستطيع إنسان أن يرتقيه!".

فتقدم نحوهما قائد المجموعة، وتبعه أولئك الذين كانوا في المقدمة وعندما رأوا ظل دانتي يمتد على الأرض، توقفوا عن المسير، وتراجعوا قليلًا إلى الوراء، وحذت حذوهم الأرواح التي كانت إلى الخلف دون أن يعرفوا سببًا لتراجعهم، مثلهم في ذلك مثل الخراف عندما تبرح حظيرتها، وتهتدي بهدي قائد القطيع في المقدمة، فإذا ما توقف توقفت، وتجمعت حواليه في بلاهةٍ وسكونٍ دون ما سبب يذكر.

ثم خاطبهم فرجيل قائلًا:

"قبل أن تسألوني، سأحيطكم علمًا بما تريدون معرفته. إن هذا الرجل لا يزال حيًّا، ولهذا ترون جسده يحجب أشعة الشمس هكذا، ويمتد ظله على الأرض. لا تتولاكم الدهشة لأن السماء هي التي شاءت لنا بأن نقوم بهذه الرحلة".

وما إن سمعت الأرواح كلام فرجيل، حتى أشارت إلى الطريق الذي يجب عليهما أن يتبعاه وقالت:

"امضيا أمامنا عبر هذا الطريق". ثم خاطب أحدهم دانتي قائلًا:

"انظر إليّ. ألم تربي على ظهر الأرض؟"

فحملق فيه دانتي؛ كان صاحب الصوت ذهبي الشعر، وسيم الطلعة رقيق الحاشية، إلا أن الشاعر الفلورنسي لم يستطع أن يتذكر من يكون.

وانفرجت أسارير صاحب الروح عن ابتسامةٍ رقيقة، وكشف لدانتي عن أثر جرحٍ غائرٍ في صدره، وأخبره أنه مانفريد ابن الإمبراطور العظيم فردريك، ثم قال:

"لقد ارتكبت أبشع الخطايا، ولكن وسعت مغفرته سبحانه كل شيء. إن الرحمة الإلهية تستجيب لكل من يتجه مخلصًا إليها".

ثم تحدث حديثًا طويلًا إلى دانتي، وأخبره أن كل من مات منبوذًا من الكنيسة، يجب أن يبقى على هذا الشاطئ الخارجي للمطهر وقتًا يعادل ثلاثين مرةً الوقت الذي ظل فيه بعيدًا عن حظيرة الدين، إلا إذا أقيمت الصلوات الروحية الكثيرة من أجله. وكان مانفريد من طردوا من رحمة الكنيسة، فتوسل إلى دانتي أن يبلغ ابنته الجميلة التي على الأرض، أن تقيم الصلوات من أجله.

وبينما كان مانفريد يتابع حديثه، سار السائحان في صحبة الأرواح إلى أن وصلا مكانًا ما كاد يبلغه الجميع حتى صاحوا قائلين:

"هذا هو الطريق الذي تريدان".

كانت هناك فتحة ضيقة جدًّا في الصخرة التي تعلوهما، وتبلغ من

الضيق درجةً يستطيع معها فلاح أن يسد فتحةً أوسع منها في سورٍ من الغاب، بحزمةٍ من الأشواك.

ونفذ فرجيل من هذه الفتحة يتبعه دانتي، وتركا الأرواح على الشاطئ أسفلهما.. كانت الصخرة مشقوقة ومعلقة من كل جانب، وكان الطريق صاعدًا بشدة، حتى إنهما استعملا أيديهما وأرجلهما ليتسلقاه.

وأخيرًا بلغا قبة الصخرة، ثم وصلا إلى سفح تلٍّ موحش، فقال دانتي لفرجيل:

"أى طريقٍ نسلك الآن يا سيدى؟"

فأجابه فرجيل قائلًا:

"دعنا نتابع الصعود حتى نجد مرشدًا خبيرًا بدروب هذا الجبل".

واستمرا في صعودهما، وكان التل عاليًا صعب المرتقى، فتعذر عليهما رؤية قمته، وعندئذ قال دانتي:

"إذا لم تتمهل وتنتظرني يا سيدي، فسأتخلف عن ركبك، وأبقى، هنا وحيدًا".

وعندئذ شجعه فرجيل قائلًا:

"تجلد يا بني، واحتمل حتى تبلغ السطح الذي يعلونا، ويحيط بالجبل من هذا الجانب".

ثم بلغا هدفهما، وجلسا طلبًا للراحة، ونظرا نحو المشرق من حيث جاءا، ودار بينهما حديث طويل، شرح فيه فرجيل لدانتي كيف تكوّن

"جبل المطهر"، وكيف أن الصعود إليه كان شاقًّا ومتعبًا أول الأمر، ثم مهدت سبله تدريجيًّا بعد أن زاد عدد الصاعدين إليه.

ثم قال:

"لهذا عندما يصبح الصعود سهلًا يسيرًا، وتصبح كمن يبحر في زورقٍ يسير مع التيار، عندئذ تكون قد بلغت نهاية الطريق، وهناك تستطيع أن تلقي بمتاعبك وتستريح".

ولما انتهى من حديثه، سمعا صوتًا من خلفهما يقول:

"وربما وجدت نفسك في حاجةٍ إلى الراحة قبل ذلك".

ونظر الشاعران فشاهدا عن يسارهما صخرةً كبيرةً، لم يلحظاها من قبل، فاتجها إليها. وهناك التقيا بجمعٍ غفيرٍ من الناس يستريحون في ظلها، وكأنهم قد استقروا في المكان يستمرئون الكسل، يجلس أحدهم وقد احتضن ركبتيه بذراعيه، وتدلت رأسه بينهما.

فصاح دانتي قائلًا:

"انظر يا سيدي إلى ذلك الذي يجلس هناك متكاسلًا، أكثر ما لو كان التراخي أخًا له".

وتأنى صاحب الروح في رفع رأسه عن ركبتيه، ونظر إلى دانتي ثم قال:

"اصعد إذن.. ما دمت تمتلئ نشاطًا وحيويةً".

وعرف دانتي صاحب هذا الروح فابتسم لكلماته وحركاته الحادثة ثم قال:

"أخبرني يا بيلاكا.. ما الذي دعاك للجلوس هكذا؟ هل أنت تحت الحراسة، أم يغلب عليك طابعك الذي لازمك في الحياة الدنيا؟

لقد كان بيلاكا معروفًا في حياته بالكسل والتراخي، فأجاب قائلًا:

"ما فائدة الصعود يا أخي؟ إن الملاك الذي يجلس إلى البوابة، قد لا يسمح لي بالدخول لأتطهر الآن، فكما تباطأنا أثناء الحياة في التوبة عن خطايانا وطلب الغفران، وجب علينا أن نتباطأ هنا في الصعود إلى الجبل، إلا إذا طلب الأحياء لنا الشفاعة بصلواتهم ودعواتهم".

وكم تمنى دانتي أن يبقى طويلًا يتحدث إلى بلاكا، إلا أن فرجيل حثه على متابعة السير قائلًا:

"الوقت ظهرًا الآن.. فهيا بنا".

٣- بوونكونتي المونتفلتروي وبيا

أخذ الشاعران يصعدان، وكانا يقابلان في طريقهما جماعات عديدة من الأرواح يتملكها جميعا الدهشة لرؤية ظل دانتي، وقد امتد على سطح الأرض، وكان على فرجيل أن يؤكد لهم دائمًا أبدًا أن دانتي لا يزال على قيد الحياة.

ورأى الشاعران إحدى هذه المجموعات قادمة من شعاب الجبل وهي ترتل في طريقها, ارحمني برحمتك يا ألله، وعندما اقتربت هذه الأرواح من دانتي صاحت به تقول:

"أيتها الروح التي تتقمصين جسدك الفاني، وأنت في طريقك إلى الجنة،

هلا تريثت قليلًا، لنرى إذا كنت تعرفين أحدًا منا فتحملين أخباره إلى الأرض. لقد كنا من الخاطئين حتى آخر لحظة في حياتنا، ثم اغتيلت أرواحنا ظلمًا وعدوانًا فأصبحنا من الشهداء، وشاءت العناية الإلهية أن نكون من نزلاء هذا المكان.... تريث قليلًا... لماذا لا تتوقف عن المسير؟"

وأصدر فرجيل أمره إلى دانتي بألا يتوقف عن الصعود، وهو يتابع حديثه معهم، فقال لهم:

"مهما تفرست في وجوهكم فلست بمستطيع أن أذكر أحدًا منكم، تحدثوا بما تريدون، وإذا قدر لي أن أفعل شيئًا من أجلكم، فسوف أفعل من أجل السلام الذي أسعى إليه.

وتحدث إليه كثير منهم، وأخذ كل واحدٍ يقص عليه قصته. ومن بين هؤلاء بوونكونتي المونتفيلتروي، وكان دانتي يعرفه كما يقول الناس عنه جنديًّا شجاعًا، كان ولدًا لجويدو الذي رآه يتعذب في الجحيم بسبب ما قدم من نصائح كاذبة! فسأله دانتي:

"لماذا لم يعرف الناس لك قبرًا بعد موقعة كامبالدينو؟" فأجابه بوونكونتي قائلا:

"لقد أصبت بجرحٍ عميق في رقبتي، فولبت الأدبار مخترقًا السهل حتى وصلت إلى المكان الذي تصب فيه ترعة أرشيانو[٢٧] في نهر أرنو[٢٨] وهناك سقطت على الأرض، ومع أنني كنت كثير الخطايا فقد تضرعت إلى

---

(٢٧) archiano

(٢٨) arno

الله، وأنا ألفظ النفس الأخير، أسأله العفو والمغفرة، ثم أسلمت الروح؛ فاستجابت إلى السماء فجاء ملاك من عند الله وقبض روحي، ولكن جاء أحد زبانية جهنم وصاح قائلًا:

"لم تسلبني روحه أيها الملك السماوي؟ أمن أجل دمعةٍ صغيرةٍ من دموع التوبة يغفر لهذا الشرير؟ ولكن صبرًا فسوف أنتقم من جسده الأرضي شر انتقام!". ولذلك لم يعثر أحد على جسدي، فلم يكد ينقضي ذلك اليوم حتى اكفهر الجو وتلبد الوادي بالغيوم، وسرعان ما تحول الهواء الكثيف إلى ما فاضت به القنوات، ثم تدفق إلى النهر الثائر، وجرف معه جسدي، الذي لم يلبث أن غطاه الحصى في قاع ذلك النهر".

وهكذا قصَّ بوونكونتي قصته؛ ثم أخذت روح أخرى تروي ما حدث لها بهذه الكلمات الرقيقة الحزينة:

"وا أسفاه! أرجو أن تذكرني عندما تعود إلى الدنيا، أنا بيا ولدت في سيئنا[٢٩]، وقضيت نحبي في ماريما[٣٠] ويعرف ذلك جيدًا من ألبسني خاتم الزواج".

ورغم أنها لم ترد على هذه الكلمات شيئًا، فقد عرف دانتي أنها بياتولومي الزوجة البريئة التي قتلها زوجها داخل قصره في ماريما ليتزوج بغيرها.

وتحدثت أرواح كثيرة إلى دانتي كانت قد تجمعت حوله، وتوسلت إليه

---

(٢٩) Siena

(٣٠) Maremma

أن يذكرها في الدنيا بين الأحياء، وكان أملهم الوحيد أن يصلي هؤلاء الأحياء من أجلهم، فلا تطول مدة التكفير عن ذنوبهم في المطهر؛ ولكي يتخلص دانتي من إلحاحهم، وعدهم جميعًا بتحقيق رغباتهم، وهو يحيل بصره هنا وهناك ليطمئنهم جميعًا.

وأخذ فرجيل يستحث زميله دانتي على متابعة الصعود، ووعده أن فتاته بياتريشي ستقوم بشرح كل ما رآه، وأنه سيراها وهي تبتسم سعيدة على قمة الجبل، فقال دانتي والسرور يملأ قلبه:

"دعنا يا سيدى نزد من سرعتنا... إنني الآن أقل تعبًا مما كنت، انظر! إن ظل التل الممتد على الأرض يشير إلى اقتراب الليل".

فأجابه فرجيل:

"سنمضي بأسرع ما يمكن في ضوء هذا النهار، غير أني أعتقد أن الشمس سوف تغرب قبل أن نصل إلى المرتفعات".

٤- الشاعران يقابلان سورديللو

تابع الشاعران سيرهما، وبعد فترةٍ وجيزة شاهدا أمامهما روحًا منعزلةً عن زميلاتها، فخورًا تتسامى بمقامها الكريم، وقد أخذت تنظر إليهما وتتأملهما مليًّا، وهي صامتة كالأسد الرابض يتأمل فريسته.

اقترب منها فرجيل لكي يسترشدها الطريق الصحيح إلى أعلى الجبل، ولكنها بدلًا من أن تجيبه إلى ما يريد، بادرت الشاعرين وسألتهما من أين جاءا، وكيف كان ذلك؟

فأجابها فرجيل قائلًا:

"من مانتوا".

ولكن محدثته لم تدعه يتم عبارته، فما إن سمعته يتفوه بكلمة ماتنوا حتى قفزت إليه لتعانقه في بشرٍ وسرورٍ وتقول:

"يا ابن مانتوا.. أنا مواطن سورديللو[٣١]!".

وبينما كان فرجيل يتحدث إلى مواطنه، بدأ دانتي يفكر في وطنه ويفتخر به، ثم أخذ ينتحب، واستولى عليه حزن عميق، لما آلت إليه بلاده من تفكك، وما اندلع فيها من فتنٍ وحروب، مزقت شملها وانتزعت من قلوب أبنائها الحب المتبادل، فلم يعد بعضهم يحب البعض كما فعل فرجيل ومواطنه. فلما رأى دانتي هذين المواطنين الكريمين، أخذ يصب اللعنات على الحالة السيئة التي وصلت إليها بلاده.

كانت الروح التي رحبت بمقدم فرجيل هي روح الشاعر المعروف سورديللو الذي جاب البقاع، ودوَّن روائعه بلغة "البروفانس" الجميلة، برغم أنه ولد في إيطاليا.

وبعد أن تكررت التحية بين هذين المواطنين (ولم يكن التعارف قد تم بينهما) تراجع سورديللو قليلًا إلى الوراء، وسأل مواطنه قائلًا:

"من أنت؟".

فأجابه فرجيل قائلًا:

---

(٣١) Sordello

"أنا فرجيل.. لقد أدركتني المنية قبل رسالة السيد المسيح، ولم يقدر لي دخول الجنة لأنني لم أدرك الوعد الحق.

وقف سورديللو صامتًا لا يبدي حراكًا، واستولت عليه دهشة بالغة، فبدا كمن يغلب عليه طابع الشك، ثم لم يلبث أن انحنى في احترامٍ وطوق بذراعيه للمرة الثانية ساقي فرجيل وقال:

"يا فخر الرومان، يا من عبرت بشعرك الرقيق، عما يعجز اللسان عن وصفه، أنت الرمز الخالد لعزة وطننا.. ما أسعد المناسبات التي جاءت بك إلى هنا لأمتع النفس برؤيتك! إذا كنت تراني أهلًا لسماع حديثك فأرجو أن تحدثني إن كنت قد حضرت من الجحيم، وإذا كان الأمر كذلك، فمن أي طبقةٍ حضرت؟".

فأجابه فرجيل قائلًا:

وهناك في أعماق الوادي الجهنمي، يوجد مكان لا يحزن العذاب نزلاءه، قدر ما تحزنهم الظلمات التي يعيشون فيها، مكان لا بكاء فيه، بل تأوهات. إني أقيم في هذا المكان مع الأطفال الأبرار الذين اختطفهم الموت، ومعنا كذلك أولئك الذين لم تصح عباداتهم. والآن أرجو أن تدلنا -إن كان ذلك في مقدورك- على أقصرٍ طريقٍ يؤدي إلى المطهر.

فأجابه سورديللو قائلًا:

"سأرافقكما وأرشدكما حتى أبلغ الحد المسموح لي به، فمن حقي أن أتجول حيث أشاء في هذا الجزء من الجبل، ولكن.. انظر، لقد بدأ الليل يرخي سدوله! ومن العسير أن نسير ليلًا، ولذا يجب أن نبحث عن مكانٍ

مريحٍ ننزل فيه".

"هناك إلى اليمين، أرواح في عزلةٍ عن غيرها، فإذا وافقتما ذهبنا إليها، وسوف تبتهجان عند رؤيتها كل الابتهاج".

وطلب إليه فرجيل أن يذهب بهما حيث يشاء، ومن ثم تقدموا جميعًا، وبعد لحظاتٍ رأوا أمامهم واديًا غائرًا في جانب الجبل، فقال سورديللو وهو يشير إليه:

"سنذهب إلى هذا الوادي حيث نمضي الليل حتى مطلع الشمس".

٥- وادي الأمراء

سار الشاعران مع مرشدهما في طريقٍ ملتوٍ حتى بلغا حافة وادٍ مليء بالمروج الخضراء، والأزهار اليانعة الزاهية، التي كانت أشد لمعانًا من الذهب، والفضة الخالصة، والبنفسج، والأصباغ القرمزية، والبيضاء والعود الهندي، والزبرجد ساعة قطعه. ولم تكتف الطبيعة بتلوين هذا الوادي بالألوان البراقة، بل صنعت أريجًا عاطرًا من آلاف العطور التركية التي انتشرت في أرجائه.

ورأى السائحان كثيرًا من الأرواح وقد اتخذت أماكنها على البساط السندسي الأخضر، وجعلت تنشد وتسبح، ولم يكن في الإمكان رؤيتهم من الخارج، لأن أسوار الوادي كانت تخفيهم عن العيون.

فقال سورديللو:

"لا تسألاني أن أذهب بكما الآن إلى هناك، سوف ترينهم من هذا

المنحدر بوضوح وتعرفانهم أكثر مما لو نزلتما إليهم، ما دام في السماء قبس من ضوء الشمس".

وأشار للسائحين وذكر لها أسماء الكثيرين من الأمراء والحكام الذين قصروا في أداء واجباتهم الدنيوية، فكان عليهم أن يكفروا عن هذا التقصير بالانتظار في هذا الوادي، وإذا ما رغبوا في الصعود صعدوا إلى أعلى الجبل.

وذكر سورديللو: الإمبراطور رودلف، وفيليب الفرنسي، وهنري النافاري، وشارل حاكم أنجو، وهنري الثالث ملك إنجلترا وكثيرين غيرهم، وكان الأب فهم يجلس إلى جوار ابنه، وأعداء الأمس يعزون بعضهم بعضًا.

وبينما كان الشاعران يرقبان الأمراء حان وقت الغروب، فشاهد واحدًا منهم ينهض من مكانه، ويرفع ذراعيه إلى السماء، ثم يأخذ في ترتيل أنشودة المساء، واندفعت الأرواح الأخرى تردد هذا النشيد الذي يفيض عذوبةً ورقةً، وما إن انتهوا من نشيدهم حتى وقفوا جميعًا، وأبصارهم شاخصةً إلى السماء وكأنهم ينتظرون أمرًا. وبينما هم وقوف هكذا هبط عليهم ملاكان من السماء وقد تقلد كلٌّ منهما سيفًا تحطم حده الذي كان شديد اللمعان كأنه البرق الخاطف وكان الملاكان يرتديان ثيابًا سندسية، في لون "الأمل" ونضرة الورق الغض، وكانا يروحان في الهواء بأجنحةٍ خضراء. واقترب أحدهما وجلس على حافة الوادي في مكانٍ يعلو السائحين، بينما اتخذ الآخر مكانه على الحافة المقابلة، وبذلك صار الأمراء بين الملاكين، فقال سورديللو:

"لقد حضرا من أعلى السماء العذراء، لحراسة الوادي من الأفعى التي سوف تظهر حالًا، والآن دعونا ننزل إلى هذه الأرواح الكريمة لنتحدث إليها، وسوف يسرها ذلك".

ونزلوا جميعًا، وتحدث دانتي إلى بعض الأمراء الذين كان يعرفهم وهم أحياء.. تكلم معهم عن أحوال بلادهم، ثم توسلوا إليه أن يطلب من الأحياء أن يصلوا من أجلهم، صلاةً خالصةً مستجابة.

وبينما كان المسافران يتابعان السير وهما يتحدثان إلى الأرواح، جذب سورديللو فرجيل وأشار بأصبعه قائلًا:

"انظر! هاك عدونا".

والتفت دانتي فإذا به يرى أفعى صغيرة تنحدر من حافة الوادي وتتلوى بين الحشائش والأزهار، وتدير رأسها من وقتٍ لآخر للعق جسمها كما تفعل بقية الزواحف، ثم رأى الملاكين الحارسين يندفعان ويضربان الهواء بأجنحتهما الخضراء، ففرت الأفعى عند سماعها حفيف الريح، وخف الملاكان ثانيةً إلى مكانهما السابق.

وتحدث دانتي إلى غير هؤلاء الأمراء الذين تحدث إليهم من قبل، وبدأت السماء تتكشف في ضوء القمر بعد أن انقضي من الليل قرابة ساعتين، فجلس السائحان أرضًا وغلب النعاس طبيعة داتني البشرية.. تلك الطبيعة التي تحتاج إلى الراحة، فارتمى على الحشائش، وراح يحلم وهو يغط في نومٍ عميق.

٦- السائحان يدخلان المطهر الحقيقي

رأى دانتي، فيما يرى النائم، نسرًا ذهبي الجناحين يحلق في السماء وهو يدور الهوينا، ثم يسرع شيئًا فشيئًا، حتى فاقت سرعته سرعة البرق. وأخيرًا ينقض على دانتي ويحمله ويرتفع به إلى أعلى، وهو يشق أجواز الفضاء مارًّا بطبقةٍ من النيران، أحس الشاعر وهو في حلمه بلهيبها فاستيقظ من نومه.

نهض دانتي وأخذ ينظر حوله وشحب لونه من الدهشة، عندما وجد أنه لم يعد في الوادي الذي رأى فيه سورديللو والأمراء، بل وجد نفسه في وادٍ آخر يطل على البحر وإلى جواره فرجيل وحده. وقال فرجيل:

"لا تخف، فعند الفجر، وقبل أن تشرق الشمس.. بينما كنت دائمًا في الوادي المنثور بالأزهار، هبطت علينا إحدى القديسات من السماء وقالت:

"أنا لوسيا[٣٢].. دعني أرافق هذا الرجل النائم، إني أرغب في أن أساعده على بلوغ ما يريد. واستطرد فرجيل قائلًا:

وعندما أخذ ضوء النهار يتضح رُويدًا رويدًا حملتك إلى أعلى، تاركةً في الوادي سورديللو وغيره من النبلاء، ولحقت أنا بكما بعد ذلك ثم وضعتك هنا، فأوضحت لي الطريق الذي يجب علينا أن نسلكه الآن، ثم انصرفت في الوقت الذي استيقظت فيه من نومك".

"إن المنطقة التي رأيناها، منذ أن غادرنا الوادي الجهنمي، هي منطقة

---

(٣٢) Lucy

ما قبل المطهر، وإننا نقترب الآن من منطقة المطهر نفسه.. انظر إلى أعلى.. هذه هي أسوارها، وهذه الفتحة التي تراها بالأسوار هي مدخل المطهر".

وعادت الطمأنينة إلى قلب دانتي، فتبع مرشده إلى تلك الفجوة التي يبدو عندها السور، وقد انقسم قسمين من فوقهما، فرأى بوابةً تؤدى إليها ثلاث درجات: الدرجة الأولى من رخامٍ أبيض أملس مصقول كالمرآة، والثانية من حجرٍ أرجواني أدكن يبدو خشنًا للعين المجردة، ويعلوها شقان متعارضان، وأما الدرجة الثالثة فمن صوانٍ قرمزي كالدم.

وكان يجلس على المدخل الماسي حارس البوابة، وهو ملاك تعلو وجهه هالة من نور، فلم يستطع دانتي النظر إليه. وكان هذا الملاك يرتدى ثوبًا رمادي اللون، ويقبض على سيفٍ لامعٍ يعكس ضوء الشمس فيبهر الأبصار.

وسأل الملاك السائحين:

"ماذا تريدان؟".

فحدثه فرجيل بما كان من أمر رحلتهما، وكيف تمت هذه الرحلة وفقًا لمشيئة الله، وعند ذلك دعاهما الملاك لصعود الدرج، فأمر فرجيل رفيقه بأن يطلب من الملاك إزاحة مزلاج البوابة، فألقى دانتي بنفسه على قدميه ملتمسًا الإذن بالدخول.

ومال الملاك بجسمه إلى الأمام، وخط بذبابة سيفه الحرف (ب= **P**) سبع مرات على جبين دانتي، ثم أمره أن يغسل الجروح ويمحوها حرفًا

حَرفًا، وهو يصعد كل طبقةٍ من الطبقات المطهرة للذنوب، ذلك أن المطهر كان محاطًا بسبع طبقاتٍ متتالية، أعدت كل طبقةٍ منها لتطهر خطيةً معينة، وكانت الحروف السبعة تشير إلى الخطايا السبع المميتة، وكان على دانتي أن يمر بها جميعًا ليتطهر من آثار جميع الخطايا قبل أن يصبح أهلًا للصعود إلى الفردوس، وكان كلما مر بطبقةٍ من الطبقات اختفت علامة من العلامات السبع.

ثم أخرج الملاك مفتاحين من تحت ردائه، أحدهما من الذهب والآخر من الفضة، وأغلق البوابة بالمفتاح الفضي أولًا ثم بالمفتاح الذهبي، وكان هذان المفتاحان مفتاحي الدينونة والغفران. وقال هذا الملاك:

"لقد انتقل إليَّ هذان المفتاحان من القديس بطرس، وترك لي مطلق الحرية أن أفتح البوابة إذا ما توسل إليَّ أحد وطلب مني ذلك"؟.

وعند ذلك فتح البوابة وقال:

"ادخلا. واعلما أن من ينظر خلفه يعود ثانيةً إلى الخارج". وأحدث فتح البوابة صريرًا عاليًا، وهو يدور على محوره، ودخل الشاعران، وأخذ دانتي يسترق السمع فكان أول صوتٍ طرق أذنيه ترتيل نشيد "نحمدك يا رب"(٣٣) تصحبه ألحان موسيقية عذبة تضيع الكلمات بين نغماتها، ثم سمع صرير البوابة وهي تغلق من خلفه، فتذكر نصيحة الملاك ولم يلتفت وراءه.

وانتهى الشاعران إلى طريقٍ ضيق، يسير صعدًا خلال صخرةٍ مشقوقةٍ تبدو أسوارها من كل جانب، وكأنها تتمايل إلى الأمام وإلى الخلف، وتتحرك

Je Deum Laudamus (٣٣)

كموج البحر.

فقال فرجيل:

"يجب أن نسير بمهارةٍ هنا، وألا نحيد عن الناحية المتمايلة إلى الوراء، سواء أكانت هذه أم تلك، لذا كان طريقهما وعرًا جدًّا، وأضحت خطواتهما بطيئةً كل البطء؛ حتى إن الشمس ارتفعت في السماء قبل أن يبلغا نهاية هذا الطريق الضيق. وأخيرًا وصلا إلى مكانٍ مكشوفٍ على حافة الجبل، فوقفا صامتين، وقد أخذ التعب من دانتي كل مأخذ. ولم يكن فرجيل يعلم شيئًا عن الطريق الصحيح الذي يجب عليهما أن يسلكاه، وأخيرًا وصلا إلى مكان السهل المقفر، يحف بجانبيه على مدى البصر حاجز مرتفع من المرمر الأبيض، رسمت علبه مناظر مدهشة نقشت نقشًا بديعًا، تنبض بالحياة المتدفقة التي تفوق الطبيعية في تدفقها وحيويتها. وبينما كان دانتي ينظر إلى الأرواح أمامه، طلب إليه فرجيل أن يفحصها جيدًا فتحول نحوها، وجعل يدقق النظر فيها جميعًا.

٧- الطبقة التي يتطهر فيها المتكبرون

هنا يتطهر الناس من خطايا الكبرياء، ورأى دانتي من بين النقوش الجميلة كثيرًا من التماثيل التي تعلم الإنسان دروسًا في التواضع، وهو ضد الكبرياء، وكانت صورة جبريل[٣٤] هي أول ما وقع عليه بصر دانتي، وقد صورت تصويرًا صادقًا، كأنها تنبض بالحياة، وإلى جواره العذراء مريم، وهي تتقبل منه البشري السعيدة، وبدت في الصورة وكأنها تقول:

---

(34)Gabriel

"هذا من فضل ربي".

وقد رأى دانتي صورة العهد وصور كثيرٍ من الرجال والنساء من العصور القديمة.

وبينما كان ينظر إلى هذه الصورة قال له فرجيل:

"انظر هذا الجمع الغفير من الناس يمشون في بطءٍ شديد، إنهم سيوضحون لنا الطريق الذي يصل بنا إلى أعلى".

والتفت دانتي مدفوعًا وراء حب استطلاعه، فرأى أشكالًا عجيبة تتجه نحوهما، ولم يستطع أن يميز إن كانوا آدميين أم لا؟ وعند ذلك أمره فرجيل أن يعيد النظر إليها، فعرف أنها أرواح انحنت تحت حجارةٍ ضخمة ثقيلة، فكانت تبدو كتماثيل أشخاصٍ انكفئوا على أعمدةٍ من الحجر كالتي تقام أحيانًا لرفع الأسقف.

وكانت هذه الأرواح تسير منحنيةً، لأنها كانت في حياتها الدنيا تفخر بنفسها وتحتقر ما عداها، ولذا فهي تتطهر الآن من خطيئتها في تواضع، وهي تبكي وتستعطف، وكانت ترتل "الصلاة الربانية" حتى تفوز بالصفح والغفران فتكون أسرع من غيرها في الصعود إلى الجبل لتهنأ بالنعيم المقيم، ثم ناداها فرجيل قائلًا:

"أنتم يا من تتعجلون الخلاص من أوزاركم! هلا أرشدتموني إلى أقصر طريقٍ يؤدي بنا في أسرع وقتٍ إلى أعلى الجبل، إذا كان هناك أكثر من طريقٍ واحد، فأيهما أقل مشقةً؟ إن رفيق رحلتي لا يستطيع أن يمضي معي إلا على مهل، لأنه لا يزال يلبس جسدًا بشريًّا.

فأجابته روح من بينها وقالت:

"تعال معنا تجاه اليمين، وستجد الطريق الذي تريد".

وبدأ صاحب هذه الروح يقص قصته: كيف انحدر من أسرةٍ كبيرةٍ عريقةٍ اشتهرت بأعمالها الجليلة، وكيف أن اعتزازه بنفسه وأسرته جعلاه يشمخ بأنفه ويتعالى على الآخرين.

وبينما كانت هذه الروح تروي قصتها انحنى دانتي ليسمع إلى حديثها، فوقع نظره على روحٍ أخرى من أرواح هذه الجماعة، قد انحنت بدورها تحت الحجر الذي تحمله فنادته، وهي لا تستطيع النظر إلى أعلى لثقل الحجر الجاثم عليها، وعند ذلك عرف دانتي صاحب هذه الروح فقال له:

"ألست أودريزي من مدينة جوبيو(٣٥) صاحب الشهرة العظيمة في فن الزخرفة؟"

فأجابه صاحب الروح:

لقد كنت في الواقع مغرورًا بفني هذا يا أخي، ولهذا تجدني هنا أكفر عن غروري. كم هو زائل سلطان البشر! وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، إن جاه الدنيا لا يساوي شيئًا.. إنه نسمة هواء تمضي في طرفة عين، وكذلك من يبلغ ذروة المجد، سرعان ما يفسح الطريق لغيره من بعده.

لقد أتى وقت على كيمابو اعتقد فيه أنه تربع على عرش فن التصوير، فلم يلبث أن ذهب مع الريح وأخذ مكانه جيوتو الذي يتربع على عرش

---

(٣٥) Gubbio

ذلك الفن. هذا هو الحال في الفنون الأخرى، وليس في فن التصوير فقط. ولقد دوي صيت قائدٍ عظيم، وطبقت شهرته جميع أرجاء توسكانا، وكان يسير في هذا الطريق من قبلي، ثم أصبح عديم الذكر حتى في سيينا مسقط رأسه.

إن مجد الإنسان "كالعشب يظهر قليلًا ثم يضمحل".

وتابع صاحب الروح حديثه، وهو يطري فضيلة التواضع، وأخذ يقص على أسماع دانتي قصصًا أخرى لمنكسرين آخرين، ظلوا يرزحون تحت عبء أوزارهم في هذه الطبقة من طبقات المطهر، وأخيرًا استحث فرجيل تابعه ليسرع في خطاه.

وانتصب دانتي واقفًا بعد أن كان يميل بجسمه إلى الأمام يستمع إلى حديث أوديزري، واقتفى أثر مرشده فقال له فرجيل:

"انظر إلى أسفل وأنت في طريقك لترفه عن نفسك بالنظر إلى إفريز الطريق الذي تسير عليه".

ونظر دانتي فإذا به يرى صورًا كثيرة قد رسمت على الأرض، تصور العذاب الذي يلاقيه المتكبرون، لتكون درسًا للأرواح وهي في طريقها لتطهر نفسها من هذا الداء عينه.

فهذا هو الشيطان الذي ولد جميلًا، وكان أجمل مخلوقٍ في الوجود، إنه مكتئب هنا لغروره الذي فاق كل غرور. وهذه نيوبا التي تفاخرت بكثرة أولادها. وتلك أراخنا التي انقلبت إلى عنكبوتٍ تبكي فيتساقط الدمع على نسيجها المهلهل. وهذه طروادة المتجبرة وقد ظهرت في خستها

وشرها، وكلها أطلال وأتربة. وإلى جانب هذه الصورة كثير غيرها.

واسترعت هذه المناظر انتباه دانتي فأخذ يسير ويسير في سفح الجبل فناداه فرجيل قائلًا:

"انظر إلى أعلى! هذا ملاك يشق طريقه إلينا، استقبله بخشوعٍ وإجلالٍ حتى يصعد بنا إلى أعلى".

رأى دانتي ملاكاً جميلًا في ثوبٍ ناصع البياض، إنه ملاك التواضع في طريقه إليهما، وما إن بلغهما حتى فتح ذراعيه قائلًا:

"تعاليا إليّ، إن المرقى قريب ومن السهل عليكما رقيه الآن".

وسار الملاك مع السائحين إلى المكان الذي شقت عنده الصخرة وتحدث إليهما حديثا عذبًا، ثم عاجل جبين دانتي بلطمةٍ من جناحيه، ويمم الشاعران وجهيهما شطر درجات السلم، فسمها في طريقهما أصواتًا تغني بأعذب الألحان "رب اغفر لأصحاب الأرواح المتواضعة".

لقد كانت رحلتهما في المطهر وهما يتنقلان من طبقةٍ إلى طبقة، تختلف كل الاختلاف عن رحلتهما في الجحيم؛ ففي الجحيم كان فرجيل ودانتي يتنقلان بين مناطق صاخبة بمرارةٍ العويل، أما هنا فإنهما ينتقلان بين طبقات الألحان العذبة.

وبينما هما في طريقهما قال دانتي:

"إنني الآن يا سيدي، لا أشعر بالتعب مطلقًا.. فأي عبءٍ ثقيلٍ قد رفع عن كاهلي!".

فأجابه فرجيل قائلًا:

عندما تمحى هذه العلامات السبع التي لا تزال منقوشة على جبينك فإنك لن تنسى متاعبك فحسب، بل ستجد أيضًا أن خطاك سوف تتوق للصعود إلى أعلى الجبل".

وكان دانتي أول الأمر بشك في صحة ما قاله فرجيل، إلا أنه عندما رفع يديه وتحسس جبينه، وجد أن علامةً من العلامات السبع المنقوشة عليه قد زالت وأن ما بقي منها ستًّا فقط.. لقد محاها الملاك بجناحه، فبلغت الدهشة بدانتي مبلغًا جعل فرجيل يبتسم.

٨- طبقة الحاسدين

بلغ الشاعران نهاية درجات السلم، فوجدا مكانًا فسيحًا يشبه المكان الذي شاهداه في الطبقة الأولى، إلا أنه أقل منه ضيقًا وأكثر تعرجًا، وكان موحشًا مقفرًا لا حياة فيه ولا ظل، فأخذ فرجيل يتلفت يمنةً ويسرةً، عله يجد دليلًا يرشدهما إلى الطريق السوي، لكن دون جدوى. فقال:

"إذا نحن انتظرنا من يرشدنا إلى الطريق المستقيم، فإني أخشى أن يطول بنا الانتظار...".

ثم رفع بصره نحو الشمس وأتم حديثه قائلًا:

"أنت.. يا مصدر الضياء والنور، يا من تهبين الدفء، هلا تفضلت بإرشادنا إلى الطريق!".

ثم سارا مع أشعة الشمس تجاه الغرب، وما إن قطعا من طريقهما

مسافةً تقدر بنحو ميلٍ على سطح الأرض، حتى سمعا حفيف روحٍ تطير عبر الهواء، وهي تغني أعذب الألحان في مديح فضيلة المحبة.

فسأل دانتي رفيقه قائلًا:

"ما هذه الأصوات يا سيدى؟"

فأجابه فرجيل قائلًا:

"إن الحسد يتطهر في هذه الطبقة، ولذا فأنت تسمع المديح من نقيض الحسد، ولكن إذا أمعنت النظر إلى الضفة التي تحف بهذه الطبقة، فسوف ترى أرواحاً تجلس عليها".

فأمعن دانتي النظر أكثر من ذي قبل، فتبين أرواحاً وقد اتخذت أماكنها عند الحافة –كما قال فرجيل– ترتدى معاطف لونها أقرب إلى لون الأحجار، مما ساعد على اختفائها عن نظره. وبعد قليل سمعها وهي تطلب الرحمة في ضراعة وتذلل.

وأخذ دانتي في البكاء من أجل هؤلاء، إذ لم يكن في استطاعة أي إنسان على وجه الأرض –مهما قسا قلبه– أن يمنع نفسه من البكاء عند رؤية هذا المنظر.

وكانت كل روح من الأرواح ترتدي ثياباً خشنة الملمس، قد نسجت من الشعر، وكانوا يجلسون وقد اعتمد كل منهم على ذراع أخيه في مواجهة الشاطئ، كما يجلس الشحاذون العمى وهم يطلبون الصدقات. وكانت هذه الأرواح لا ترى نور الشمس شأنها في ذلك شأن العميان سواء بسواء

لأن أجفانها شدت بسلوك من حديد.

شعر دانتي أنه قد أخطأ في حقهم، وهو يمعن النظر إليهم وهم لا يبصرون، فتحدث إليهم قائلاً:

"أيتها الأرواح الواثقة من رؤية نور الجنة، ليغفر الله ذنوبكم.

أرجو أن أعرف هل بينكم أحد من إيطاليا".

فأجابته روح وقالت:

"أيها الأخ، إن جميع النازلين هنا ينتمون إلى مدينة واحدة، فهل تسأل عن واحد منا عاش في إيطاليا نزيلاً؟".

فالتفت دانتي إلى تلك الروح التي تحدثت إليه، وطلب إليها أن تذكر اسمها وتاريخ حياتها.

فأجابته الروح قائلة:

"أنا سابيا موطني سيينا، أتطهر الآن من أحقادي الدنيوية لقد كانت نار الحقد والحسد تأكل قلبي كلما أبصرت نعمة تبدو على غيري من المواطنين، وقد بلغ بي الحسد حداً تمنيت معه على الله أن يهزم مواطني في الحرب، وكنت عندما يفرون مذعورين أرفع وجهي إلى السماء وأقول:

"رب، لم أعد أخشاك بعد الآن، فلقد تحققت رغبتي".

إلا أني قبيل موتي تمنيت التوبة ورجعت إلى الله، ولو لم يشفع لي أحد ويصل من أجلي، لما أفادتني توبتي شيئاً.

ثم تكلمت كثير من أرواح الحاسدين إلى دانتي، وقدموا أنفسهم إليه، وقصوا عليه ما كان من أمرهم، وتوسل إليه الجميع أن يطلب إلى الأحياء أن يصلوا من أجلهم، حتى لا تطول مدة بقائهم في المطهر.

وبعد قليل واصل الشاعران السير دون مصاحبة أحد، وفجأة سمعا صوتاً يخترق الهواء في سرعة البرق الخاطف يقول:

"كل من وجدني يقتلني".

ثم أخذ صوت قايين (قابيل) يتلاشى في سرعة خاطفة كما بدأ، كانتهاء هدير الرعد، وسمع الشاعران أصواتاً أخرى، تردد سير الحاسدين وسوء مصيرهم، إلى أن مضت الأرواح جميعاً، فساد الهدوء من جديد.

وقال فرجيل:

"ألا فليتعلم الناس، لأن السموات تناديهم وتدور في بهاء لكن عين الإنسان تنظر دائماً إلى الأرض".

وكان النهار يسير إلى الزوال، عندما تابع السائحان الصعود في طريقهما، وكانت الشمس وهي في طريقها للغروب ترسل أشعتها فتغمر وجهيهما. وعلى حين فجأة أحس دانتي نوراً وبهاء، يتساقط على وجهه فرفع يديه ليحجب عن عينيه هذا الضوء الخاطف، وظل الضوء يتزايد لدرجة لم يعد يحتملها، فسأل فرجيل:

"ما هذا الذي يواجهنا يا سيدي، فلا أستطيع أن أنظر إليه؟"

فأجابه فرجيل قائلاً:

"لا تأخذك الدهشة، وإذا لم يكن في مقدورك حتى الآن احتمال النور الذي تفيض به وجوه رسل السماء، فسيهون عليك ذلك في الحال فهذا ملاك المحبة الذي حضر ليعطي لنا الأمر بالصعود".

وعندئذ قال الملاك في صوت مرح:

"ادخلا من هنا! إن هذا المرتقى أيسر من سابقيه".

وأخذ الشاعران في الصعود، فسمعا أصواتاً ترتل:

"طوبى للرحماء" ... وغير ذلك من التراتيل.

وفيما هما يسيران، أخذ دانتي يستفسر من دليله عن كثير مما رأي فأجابه فرجيل عن بعضها، وقال له إن بياتريشي سوف تحرره من شكوكه عندما يصلان إليها ثم قال:

"والآن، ليس عليك إلا أن تجد في سيرك إلى الأمام، حتى تتحرر سريعاً من العلامات الخمس الباقية فوق جبينك، بعد أن تحررت من اثنتين منها حتى الآن".

٩- الشاعران يتجولان في طبقة الغضب التي يملؤها الدخان ثم يشاهدان الكسالى العاطلين

بلغ الشاعران الطبقة الثالثة من طبقات المطهر، وهم دانتي بالحديث، لولا أن استرعى انتباهه منظر أذهله، واستحوذ على كل حواسه: فقد رأى رسوماً عدة تصور المغفرة، منها صورة لقديس يصلى من أجل من رجموه

بالحجارة وغيرها كثير.

وعندما بدأ دانتي يسترد انتباهه بعد قليل، سأله فرجيل قائلاً:

"ما الذي دهاك، لقد قطعت من طريقك أكثر من نصف فرسخ، وعيناك مربوط عليهما، لا تدري موضع قدميك، كمن غلبه النعاس، أو كمن أسكرته الخمر".

وأخذ دانتي يتحدث عما رأى، فاستوقفه فرجيل قائلا:

"إني أعلم سلفاً كل ما تقول، وكل ما أريد هو أن أستحث خطاك؛ فقد وجب علينا الإسراع في الصعود. إن المقصود من كل ما رأيت هو حثك على أن تفتح قلبك (لمياه السلام) التي تنساب من الينبوع الأبدي".

وتابعا رحلتهما، وكانا ينظران أمامهما إلى خيوط شمس الأصيل الغاربة، وبينما هما يسيران، أخذ يطبق عليهما دخان كثيف كظلمة الليل، لا تقاس ظلمته بظلام الجحيم تحت السحب السوداء، ولا بدكنة السماء التي خلت من كواكبها.

فاضطر دانتي أن يغمض عينيه، واقترب منه فرجيل وسمح له أن يعتمد على كتفه وقال:

"حاول ألا تتخلف عني!".

وتابع فرجيل سيره في هذا الجو المعتم الخانق، وأخذ يقود دانتي كما لو كان كفيفاً.

وبينما هما يتابعان سيرهما، طرقت سمعهما أصوات تطلب من الله

الرحمة والمغفرة، فأخبر فرجيل رفيقه، بأن هذه الأرواح تتطهر من خطيئة "الغضب".

ثم صاحت إحدى الأرواح قائلة:

"من تكون يا من تشق طريقك عبر دخاننا، وتتكلم كما لو كنت على قيد الحياة؟".

فأجابها دانتي قائلاً:

"أيتها الروح التي تتطهرين مما علق بك من خطايا، حتى ترجعي إلى خالقك راضية مرضية، اتبعيني لأتحدث إليك".

فأجابه الصوت قائلا:

"سأتبعك للحد الذي أستطيع، ومع أن الدخان يفرق بيننا، فسوف يجمعنا السمع".

وبدأ دانتي الحديث قائلاً:

"إنني أصعد إلى أعلى بجسدي الذي سوف يفنى، وقد وصلت إلى هنا بعد أن قاسيت العذاب في الجحيم؛ لا تخفي عني اسمك، وأخبريني إن كان هذا الطريق هو الصراط المستقيم إلى المعراج".

فأجابت الروح إنهما يسلكان الطريق الصحيح، وإنها روح مارك اللومباردي، وكان دانتي يعرف أنه من رجال البلاط المشهورين.

لقد دار بينهما حديث طويل على مستوى عال، تعرضا فيه للحالة السيئة التي وصلت إليها إيطاليا بعد أن مزقتها الحزبية والحروب الطاحنة.

"اعتادت روما في الواقع أن يكون لها حاكمان بابا وإمبراطور..

أحدهما للدين، والآخر للدنيا؛ ولكن البابا يريد الآن أن يحكم الدنيا أيضاً، فنتج عن ذلك كثير من الأحزان".

ثم أضاف مارك إلى ما قال أشياء كثيرة وافقه عليها دانتي، ثم توقف مارك عن المسير وقال:

"لا استطيع أن أتعدى هذا المكان؛ فهناك إلى الأمام ضوء يتلألأ بين حجب الظلام.. إنه الملاك. وغير مصرح لي للآن بأن أراه" ثم تركهما وعاد أدراجه.

وتابع فرجيل ودانتي سيرهما إلى أعلى، وما أن أدركا نهاية طبقة الدخان، حتى بدت لها شمس الأصيل ترسل –وهي على وسط المغيب– شعاعاً ضعيفاً كالضوء الخافت الذي يظهر من وراء سحابة رقيقة، وما إن تركا هذه الطبقة، حتى استولى الخيال على عقل دانتي.

وفي هذ المرة رأى –وكأنه في حلم– كثيراً من مآسي الغضب، وكما يضايق الضوء الساطع عين النائم، كذلك تسلط شعاع قوي على وجه دانتي؛ فإذا بالرؤيا تتلاشى فلا يستطيع أن يرى شيئاً من شدة البهاء الذي عم المكان، ولكنه سمع صوتاً يقول:

"هذا هو الطريق الذي تتبعانه في الصعود".

فقال فرجيل:

"إنه ملاك الرحمة، يرشدنا قبل أن نلتمس منه سؤالاً.. علينا أن نسرع

الخطأ، فالليل بدأ يرخي سدوله، ولن نستطيع أن نمضي في طريقنا ليلاً".

وأخذا طريقهما إلى المعراج، وبينما هما يسيران أحس دانتي بضربة في الهواء من جناح على وجهه، ثم سمع صوتاً يقول:

"طوبى لصانعي السلام".

وأسرع الشاعران في الصعود، وما إن بلغا الطبقة الجديدة، حتى سأل دانتي عن جريمة المعذبين الذين يتطهرون في هذه الطبقة.

فأجابه فرجيل قائلاً:

"إن الكسالى العاطلين هم الذين يتطهرون هنا، هؤلاء الذين يعرفون الطريق إلى الخير ولا يطرقونه".

وجلسا طلباً للراحة، وأخذ فرجيل يلقن دانتي الكثير عن طبيعة الحب، ويشرح له كيف يتولد الشر. وبينما هو يتابع حديثه أخذ القمر يرتفع في السماء عالياً، وأخذ الزمن يزحف نحو منتصف الليل.

وغلب النعاس دانتي، فاستسلم لنوم عميق، بينما اندفعت نحوهما جماعة من الأرواح تتوق إلى التطهر من خطيئة الكسل، حتى إنها رفضت التوقف للإجابة عن أسئلة فرجيل.

وصاحت الأرواح:

"ألا فأسرعا! أسرعا".

ثم نادت إحدى هذه الأرواح على السائحين وقالت:

"اتبعانا وسوف تجدان طريقكما إلى أعلى! اغفرا لنا عدم انتظاركما..

إننا نحرص كل الحرص على أن نطهر أنفسنا".

ثم لم تلبث هذه الروح أن اندفعت خلف أترابها.

وعندما غابت الأرواح كلها عن البصر، بدأ دانتي يفكر فيما رأى، وتزاحمت الأفكار على رأسه، وألم به التعب، وغلبه النوم مرة أخرى فنام، وسرعان ما استحالت أفكاره إلى أحلام.

١٠- دانتي يتحدث إلى بعض الذين يطهرون أنفسهم من البخل

عندما حانت ساعة الصباح الباردة التي تسبق الفجر، حلم دانتي حلماً، بدت له فيه مخلوقة قبيحة المنظر.. امرأة لكناء، عوراء، عرجاء مبتورة اليدين، شاحبة اللون. ثم حملق دانتي في وجهها، وبينما هو ينظر إليها أخذ شكلها يتغير حتى أضحت أكثر جمالاً، وقد اعتدلت أطرافها وتورد خداها، وغدت في صورة يتمناها العاشق، ثم اندفعت تغني بنغمات تسلب الألباب:

"أنا حورية البحر الفاتنة، افتن الملاحين في وسط المحيطات، إن ألحاني تسحر الآذان. لقد حولت عوليس[٣٦] عن طريقه، إن من يستمع إلى ألحاني مرة، يصعب عليه أن يفارقني.. إني أفيض فرحاً وسحراً.

ولم تكد تنتهي من ترتيل نشيدها حتى ظهرت لدانتي قديسة جعلت هذه المخلوقة تضطرب، وكانت تبدو غاضبة وقالت:

(36) Ulysses

"فرجيل، أنت يا فرجيل! من يكون رفيقك هذا؟"

وعندئذ أسرع فرجيل ومزق ملابس القديسة (جنية البحر) فاستيقظ دانتي من نومه.

وتلفت دانتي حوله فوجد فرجيل إلى جواره يقول:

"لقد ناديتك ثلاث مرات على الأقل! انهض وأسرع فقد نهتدي إلى السلم الذي يؤدي بنا سريعاً إلى أعلى".

وكان نور الصباح قد اكتمل في ذلك الوقت، فسار دانتي خلف مرشده مطأطئ الرأس، وهو يفكر عندما سمع صوتاً رقيقاً يناديهما:

" إليّ، هنا الطريق!"

وكان للملاك الذي نادى عليهما جناحان عريضان كأجنحة البجع، خذ يروح بهما السائحين، ثم أضاف قائلاً:

"طوبى للحزانى لأنهم سوف ينعمون بالراحة".

وبدأ الشاعران بشقان طريقهما إلى أعلى، وكان دانتي لا يزال يعاني خفقاناً في قلبه لما رأى في حلمه السابق، فواساه فرجيل، وطلب إليه أن يرفع بصره إلى أعلى، ثم قال له:

"إنك كلما صعدت طبقة أعلى، ازدادت روحك طهراً، وتحررت من مثل هذه الأحلام المزعجة".

وأخذا يتابعان طريقهما إلى أعلى عبر الصخرة المشقوقة، حتى بلغ الطبقة الخامسة من طبقات المطهر.

وهناك شاهدا كثيراً من الأرواح تمددت على الأرض، وقد انكفأت وجوهها إلى أسفل تبكي وتتأوه بمرارة. وطلب إليها فرجيل إرشادهما إلى الطريق الصحيح، فأجابته روح من بين الأرواح، أن الطريق الصحيح الذي يجب عليهما أن يسلكاه يقع إلى يمينهما.

فتحدث إليها داني قائلاً:

"أيتها الروح التي تطهرين نفسك بدموعك، أرجو أن تقولي لي من أنت، ولماذا ينحني ظهرك هكذا إلى أعلى. إذا قدر لي أن أفعل من أجلك شيئاً ما في الحياة الدنيا التي سوف أعود إليه ، فسوف أفعله راضياً مرضياً".

فأجابته الروح قائلة:

وسأحدثك عن عذابنا، ولكن قبل كل شيء أريدك أن تعلم أنني الرئيس الديني أدريان الخامس. لقد آلت إلي المفاتيح الكبرى، وبقيت في يدي لمدة تزيد على الشهر بقليل. وبرغم أني كنت أعلم أنني بلغت منصباً لا يمكن لأي إنسان أن يتخطاه، فلم أقنع حتى هذا المنصب، ولذلك عندما تقدم بي العمر، رجعت إلى الله وندمت على فعلت. لقد كانت روحي إلى ذلك الوقت جشعة، بعيدة كل البعد عن طاعة الله، ولهذا تجدني أتطهر هنا من هذه الخطيئة.. في هذه الطبقة التي أعدت للتطهر من جشع البخلاء، وكما كنا ننظر بشراهة إلى متاع الدنيا وما فيها من مادة غير آبهين بتعاليم السماء، فيجب علينا أن نحملق هنا في الأرض.

واهتز قلب دانتي احتراماً لذكر هذا المنصب الديني الكبير، فمال

مجسمه إلى أسفل، وهو يستمع إلى حديث الروح، وأخيراً عاتبه أدريان قائلا:

"ارفع رأسك يا أخي، فلم أكن إلا خادماً معك، ومع الناس أجمعين، ولم يكن لي إلا سلطان واحد، والآن أرجو أن تمضي وتتركني؛ فإن حديثي معك يعوقني عن البكاء، وبالبكاء وحده يجب أن أطهر نفسى قبل أن أصعد إلى السماء الأعلى".

كان دانتي يود لو استمر في حديثه معه، إلا أنه نزل على رغبته، فتركه مقتفياً أثر فرجيل، وكل اهتمامه موجه إلى الأرواح الباكية التي يمران بها. وتحدث دانتي إلى روح أخرى من بين الأرواح هي هوج كابيت(٣٧) ملك فرنسا وهو يندب أطاعه الدنيوية، ويشكو إلى دانتي الأحزان والآلام التي سببتها أطماع أسرته الملكية لكثير من بلاد أوروبا، وخص بالذكر منهم شارل حاكم أنجو، وشارل فالوا، وشارل الأعرج، وفيليب – فالو وغيرهم ممن انحدروا من سلالته، ثم قال:

"وا أسفاه.. هل يستطيع الجشع أن يعمل أكثر من ذلك بين أفراد أسرتي؟ لقد استحوذ بنفوذه علينا جميعاً.

ثم أخبر دانتي كيف أن الأرواح تقص في المساء على بعضها أشهر الأمثال عن الجشع على سبيل التحذير، وكيف تتغني نهاراً بالعدالة والكرم على سبيل المثال.

وأخيراً ترك فرجيل ودانتي حفيد الأسرة المالكة في فرنسا، وسارا في

(37) Hugh Capet.

طريقهما بحثاً عن معراج آخر يؤدي بهما إلى أعلى.

١١- لقاء ستاتيوس

بينما كان الشاعران يمضيان في طريقهما إلى أعلى اهتز الجبل فجأة وزلزل سفحه زلزالاً شديداً، كما لو كان ينذر بالانهيار، ثم روعت جنبات الوادي بصيحة مدوية، فزع لها دانتي وارتعدت فرائصه كمن يخشى الموت، فاقترب منه فرجيل قائلاً:

"لا تخش شيئاً... إنني إلى جانبك أرشدك إلى الطريق الصحيح".

وأخذت مقاطع هذه الصيحات تتضح، وأخذت الأرواح القريبة من دانتي تصيح: "المجد لله في الأعالي!". وخيم سكون رهيب على الشاعرين حتى توقف الصياح، وتوقف بالتالي اهتزاز الجبل، فتابعا سيرهما من جديد. ورغب دانتي في أن يقف على حقيقة كل ما يدور حوله دون ما سبب ظاهر، ولما عاد كل شيء إلى ما كان عليه، لم يشأ دانتي أن يوجه الأسئلة إلى دليله، ويعوق سيره، بينما كان يسرع خطاه، فتبعه في صمت، مع أن رغبة جامحة لمعرفة الحقيقة كانت تلهب صدره.

وبينما كان دانتي يفكر فيما عساه يكون قد حدث، سار من خلفهما شبح يبغى اللحاق بهما، ولم يشعرا به إلا بعد أن تحدث إليهما قائلاً:

"سلام الله عليكم أيها الإخوان".

فاستدار الشاعران بسرعة، ورد فرجيل التحية. وتابع صاحب الروح حديثه قائلاً:

"كيف حدث هذا، وكيف لأرواحكما، وهي لم تستأهل المغفرة بعد، أن تحضر إلى هنا من غير دليل يهديكما سواء السبيل؟"

فطلب إليه فرجيل أن ينظر إلى دانتي، ليعرف أنه لا يزال على قيد الحياة، وحدثه عن رحلة دانتي، وكيف أنه هو نفسه شق طريقه في غياهب الجحيم ليقوده في رحلته، ثم تابع حديثه مستفسراً:

أرجو أن تخبرنا، إذا تفضلت، لماذا اهتز الجبل، ولأي سبب كانت هذه الصيحات المدوية؟

وفرح دانتي التوجيه هذا السؤال، الذي كان هو نفسه يرغب في توجيهه.

فأجابت الروح:

"لا يمكن لأي مؤثر أن يؤثر على طبيعة هذا الجبل المقدس، ولم يكن ما شاهدت زلزالاً كما قد يتبادر إلى ذهنك، فعندما تتطهر إحدى الأرواح تماماً، وتصبح جديرة بأن تصعد إلى السموات العلى يهتز الجبل. وقد نزلت إلى هذا المكان، وعانيت العذاب لمدة تربو على خمسمائة عام، ثم أصبحت الآن جديراً بأن أرتقي مكاناً أفضل من هذا، ولهذا فقد اهتزت الأرض، وارتفع صباح الأرواح بالمديح لله تعالى".

وشكره فرجيل وطلب إليه إذا كان في إمكانهما معرفة اسمه الذي كان يحمله وهو على الأرض فأجاب صاحب الروح قائلاً:

"كنت شاعراً في الحياة الدنيا، وكنت أسمي ستاتيوس

وطالما تغنيت بمحاسن طيبة[٣٨]، والبطل العظيم أخيل وقد استوحيت روائع شعري من الإنياده التي تعلمت ما الفن، والتي بدونها ما كنت استحق شيئاً، ولو قدر لي أن أعيش مع فرجيل وأراه لاحتملت البقاء هنا في المطهر عاماً آخر!

والتفت فرجيل إلى دانتي وأفهمه بإشارة منه أن يلوذ بالصمت، وكان دانتي يرغب من كل قلبه أن يجيبه إلى طلبه، إلا أنه لم يتمالك أن يحدس ابتسامة ارتسمت على شفتيه.

وشاهد ستاتيوس هذه الابتسامة، فأخذ يتفرس في وجه دانتي ثم استفسر عما تعنيه هذه الابتسامة".

وقف دانتي وهو لا يدري ماذا يفعل، فلاذ بالصمت، وأخيراً طلب منه فرجيل أن يتكلم فبدأ حديثه قائلاً:

"أيتها الروح التي عاشت في الأزمنة الغابرة، قد تدهش من ابتسامتي ولكن سوف يزيد في دهشتك ما أقوله لك، إن الذي يرافقني هنا ويرشدني في طريقي هو فرجيل نفسه الذي استوحيت منه روائع شعرك، لذلك ابتسمت عندما تحدثت عنه لأنني عرفت أنك ما كنت تحلم بوجوده هنا".

وما إن سمع ستاتيوس ذلك حتى ارتمى على قدمي فرجيل يريد تقبيلهما، فقال فرجيل :

"انهض يا أخي! إنك لست إلا طيفاً، وإن من تود عناقه ليس إلا طيفاً

---

(38)Thebes

مثلك".

فنهض ستاتيوس واقفاً، وابتسم وقال في احترام:

"إنك تعرف الآن ما لا يدع مجالاً للشك أي حب أكنه لك، فلقد أنساني هذا الحب أننا أطياف، وجعلني أعتقد أننا ما زلنا أحياء بأجسادنا!".

وسار ثلاثتهم حتى وصلوا إلى المعراج التالي، وهناك ضرب الملاك حارس هذا المعراج الهواء بجناحيه فأزال العلامة الخامسة من فوق جبين دانتي وقال:

"طوبي للعطاش إلى البر".

وأحس دانتي أنه أصبح أكثر خفة، فتبع فرجيل وستاتيوس دون أن يحس أي نصب، وأخذ يستمع في شغف وسرور إلى حديث شاعرين من شعراء العصر القديم، وقال فرجيل لستاتيوس:

" منذ أن نزل جوفينال (Jvenal) إلى هذه الطبقة التي أقيم فيها، وأخبرني عن رقيق مشاعرك نحوي، شعرت بميلي الشديد إليك، وعلى ذلك فسوف يحين حالاً الوقت الذي أكون فيه إلى جوارك، ولكن حدثني، وأرجو أن تغفر لصديقك سؤاله، كيف يوجد بصدرك، وقد اتسع لهذه الحكمة كلها، موضع للجشع والبخل؟".

ابتسم ستاتيوس وأجاب فرجيل قائلاً:

"إنك في الواقع تتجنى علي، فقد كنت بعيداً كل البعد عن البخل،

وقد أخطأت فاندفعت وراء الإسراف ويجب أن تعلم أن المبذرين يتطهرون كذلك في الطبقة التي وجدتني بها، وكان الفضل لبيت شعر من أشعارك الذي جعلني ارتدع عن هذا الإثم، ومن ثم جاهدت نفسي حتى أقلعت عن هذه العادة".

ثم عاد فرجيل وسأله قائلا:

"يبدو مما كتبت في مؤلفاتك أنك لم تكن تعلم شيئاً عن "الإيمان الحق"، فإذا كان الأمر كذلك، فما الذي أنار الطريق أمام عينيك وجعلك تتبع المسيح؟.

فقد كان فرجيل يعلم أن ستاتيوس لو لم يكن قد اهتدى إلى دين الله في الحياة الدنيا، لأصبح بين نزلاء منطقة لمبو مع الذين كانوا لا يعرفون الدين الحق.

فأجابه ستاتيوس قائلا:

"إن كتاباتك هي التي جعلتني أتجه إلى الله، إن مثلك كمثل من يسير ليلاً ويحمل مشعله خلف ظهره، لا ينير الطريق لنفسه ولكن ينيره اللذين يأتون من خلفه؛ لقد قلت في أشعارك: "يتجدد العالم، وتعود العدالة ويبدأ عصر الإنسان الأول فيهبط من السماء جيل جديد "وعندما كنت حياً على ظهر الأرض كانت العقيدة الصادقة تملأ الدنيا بعد أن غرسها رسل المسيح؛ وعندما قرأت ذلك في كتابك تجاوبت أصداء ما قرأت لك مع هؤلاء الرسل الجدد، فبدأت أتردد عليهم، واهتديت بعقيدتهم المقدسة وحياتهم الصحيحة، ورغم أنك أنت نفسك لم تكن تعرف الإله الحق، فقد

اعتنقت أنا المسيحية بسببك".

ثم سأل ستاتيوس فرجيل عن مقر أرواح الشعراء القدامى وخص بالسؤال ترنتيوس، وبلاوتوس وفارو فأجابه فرجيل أنهم جميعاً معه في منطقة لمبو، مع هوميروس ويوريبيديس وغيرهم كثير.

ثم قال:

"وكثيراً ما نتحدث عن جبل بارناسوس حيث تقيم ربات الشعر دائماً

.

وتحدث الشاعران بعضهما إلى البعض طويلاً ثم خيم عليهما، بعد فترة وجيزة.. صمت عميق، وبدءا الحديث ثانية، وفي أثناء ذلك بلغوا جميعاً الطبقة السادسة، وهناك وجهوا كل اهتمامهم إلى النظر حولهم من غير أن يعرفوا الطريق الصحيح الذي يجب عليهم أن يسلكوه. واكتمل ضوء الصباح ثم قال فرجيل: أعتقد أنه يجب علينا أن نسير إلى اليمين كما اعتدنا أن نسير من قبل".

وتا بعوا سيرهم، وتأكد فرجيل ودانتي أنهما يسيران في الطريق الصحيح، ما دام ستاتيوس معهما.

١٢- دانتي يقابل صديقه فوريسا دوناتي

وبينما كانوا في طريقهم، ظل فرجيل وستاتيوس يسيران جنباً إلى جنب، يتبعهما داني وهو ينصت باهتمام إلى حديثهما، ولم يلبثوا أن وجدوا في منتصف الطريق شجرة أثمرت فاكهة جميلة المنظر تنتشر منها رائحة عطرية زكية، وكانت هذه الشجرة غريبة النمو، فأغصانها الكبيرة تتجه إلى

أعلى والصغيرة إلى أسفل، وكانت تنمو على هذه الحال حتى لا يتساقها أحد. ومن صخرة تعلوها، أنساب جدول من المياه الصافية؛ فكانت مياه الجدول وفاكهة الشجرة تبدو للعين طعاماً هنيئاً وشراباً مريئاً.

وبينما كان دانتي يحملق في الشجرة سمع أصواتاً ترتل الأناشيد وهي تبكي فقال لفرجيل:

"ما هذا الذي أسمع يا أبي العزيز؟".

فأجابه قائلاً:

"إنها أشباح الذين يطهرون أنفسهم".

ومن خلف الشعراء جاءت جماعة من الأرواح تتزاحم في الطريق والتفتت إليهم في دهشة ثم تركتهم وأسرعت في السير وسبقتهم، مثلهم مثل عابر السبيل الذي يفاجئ الغرباء ويمعن النظر فيهم ثم ينصرف عنهم ولا يتبع خطاهم. كانت وجوههم شاحبة صفراء وعيونهم غائرة،

وكانوا نحافاً عجافاً فلم تكن أجسامهم إلا جلوداً تكسو عظامهم.

اعتقد دانتي أن هذه الأرواح تعاني مرارة الجوع إلا أنه لم يجد سبباً لنحافتهم وهزالهم، وبينما كان دانتي يفكر في ذلك التفت إليه شبح من الأشباح وأخذ يحملق فيه وصاح قائلاً:

"إنه لفضل عظيم أن أمنح هذا الشرف".

ولم يستطع دانتي أن يذكر وجه ذلك الشبح فقد تغيرت ملامحه ولكنه استطاع أن يعرف من صوته أنه صديقه السابق فوريسا دوناتي الذي قضى

معه أكثر أيام شبابه، فصاح فيه قائلا:

"لقد أبكاني موتك بكاء مراً، ولكن تغير سحنتك يؤلمني أكثر ما آلمني موتك حينذاك، أستحلفك بالله أن تحدثني، ما الذي غير شكلك هكذا؟".

فأجابه فوريسا قائلاً:

"إن كل هذه الأرواح التي تغني وهي تبكي، تطمر نفسها من خطيئة الشراهة، لقد كانوا يتبعون شهواتهم إلى حد الإسراف وهم على قيد الحياة. إن رائحة الفاكهة، ورذاذ الماء الذي يتناثر وهو يتدفق على أوراق الشجر، يملآن النفس رغبة في الطعام والشراب. ولكن إعراضنا عن هذه الرغبة هو الوسيلة لتطهير أنفسنا في هذه الطبقة، لذلك تجدنا ضعافاً ذابلين".

وعرف دانتي أن فوريسا قد تقاعس عن التوبة إلى وقت متأخر من حياته، ولهذا سأل كيف أن صديقه قد سبق أن أخذ طريقه إلى أعلى الجبل منذ أمد طويل، بينما لا يزال في منطقة ما قبل المطهر يعاني تأخره في رجوعه إلى الله والتوبة مما لحقه من آثام.

فأجابه فوريسا قائلاً:

"إنني أدين بذلك حقاً إلى زوجتى نللا، فقد أنقذتني من الطبقات السفلى، ونقلتني إلى هذا المكان بدعواتها الخالصة من أجلي، إن الله يستجيب لدعائها لأنها من أحبائه، وهكذا تنفعنا هنا دعوات الأحياء.

"والآن أرجوك يا أخي ألا تغيب عني بعد ذلك.. أنظر، لست أنا وحدي الذي أحملق في جسدك وهو يلقى ظله على الأرض في أشعة

الشمس بل كل هذه الأرواح تشاركني ذلك! ابق وحدثني عن نفسك".

وبدأ دانتي حديثه قائلا:

"لو تذكر أي نوع من الحياة كنت أعيش عندما كنا معاً على الأرض لأحزنتك الذكري. وقد تحولت عن هذه الحياة التافهة بفضل مرشدي الذي هداني في عالم الظلمات ورافقني في دنيا الأموات وأنا ما أزال على قيد الحياة، ثم انتقل بي إلى هنا وهو يلف ويدور حول الجبل، وسوف يلازمني حتى أبلغ المكان الذي به بياتريشي، ومن ثم يجب عليه أن يتركني إن مرشدي هو فرجيل، أما الثاني الذي يصحبني فهو روح الرجل الذي اهتز الجبل أخيراً لتطهره".

ولم يتوقفوا عن المسير بسبب هذا الحديث، بل كانوا يسيرون في طريقهم إلى أعلى بسرعة بالغة كسفينة تدفعها رياح مواتية، بينما أخذت الأرواح الأخرى تتأمل في دهشة الرجل الذي لا يزال بينهم على قيد الحياة"

وتحدث دانتي إلى فوريسا، وأخذ الاثنان ينتقدان العادات السيئة التي تردت فيها فلورنسا، ثم سأل الشاعر صديقه أين تبكون شقيقته بيكاردا ديوناتي:

فأجابه فوريسا قائلا:

"إن شقيقتي التي فازت في عمل الخير –كما فازت في عالم الجمال– تتمتع الآن بإكليل المجد في الجنة".

ثم أضاف قائلا:

"سوف أذكر لكما هنا أسماء رفاق آخرين بعد أن تبدلت ملامحهم فأصبح من الصعب عليكم أن تعرفوهم".

فأشار داني إلى الشاعر بوناجيونتا لوكا، والبابا مارتن الرابع وغيرهما كثير من اتصفوا بالشره والإسراف في حياتهم الدنيا.

ولاحظ دانتي أن الشاعر بوناجيونتا كان ينظر إليه متأملاً فاحصاً، وخيل إليه أنه يعرف القليل عنه فقال:

"أيتها الروح التي تبدي رغبتها في الحديث معي، تحدثي لأعرف ما سوف تقولين".

وعندئذ استفسر بوناجيونتا عما إذا كان يرى أمامه دانتي اليجييرى نفسه، ثم اقتبس أبياتاً من شعر دانتي حتى يثبت أنه غير مخطئ.

فأجابه دانتي في تواضع، وقال:

"لقد كنت أنظم الشعر الذي يمليه على "الحب" إذا ما استعرت ناره بين ضلوعي".

وتحدث الاثنان معاً عن الشعر الإيطالي، وعن أسلوب العظم الجديد وكيف برز إلى الوجود. وبعد قليل أسرعت كل الأرواح التي كانت تحيط بالسائحين، وجرت إلى أعلى فيما عدا فوريسا، الذي كان كمن يغلب عليه التعب بعد عدو سريع فيترك زملاءه يمضون وينتظر حتى يستعيد أنفاسه. وهكذا ترك فوريسا رفاقه من الأرواح تمضي، وتبعهم مع دانتي قائلاً:

"متى أراك ثانية؟".

فأجابه دانتي قائلاً:

"لا أعرف كم بقى لي من حياتي الدنيا، ولكن أتمنى من كل قلبي ألا يطول بي الزمن حتى ألقاك، لأن وطني يقفر يوماً بعد يوم من الخير، لقد كتب عليه الدمار المرير".

وترك كل من الشاعرين زميله، وأسرع فوريسا إلى الأمام ومن خلفه سار دانتي مع فرجيل وستاتيوس، وبقيت عيناه تتابع فوريسا في حب وحنان.

وبعد قليل بلغ السائحون شجرة أخرى مخضرة الأغصان، محملة بالفاكهة وقف تحتها قوم رفعوا أيديهم نحو الفاكهة كأطفال شرهين نهمين. وعندما وصل الشعراء إلى الشجرة، سمعوا صوتاً يصدر عنها ويقول:

" تابعوا طريقكم، ولا تقربوا هذا المكان! هناك إلى أعلى سوف ترون شجرة المعرفة، التي نبت منها هذا الفرع".

فساروا جميعاً في صمت؛ وكل منهم غارق في تأملاته عبر الطريق المنعزل، ثم سمعوا صوتاً مفاجئاً يقول:

"فيم تفكرون في أثناء سيركم؟ إذا كنتم ترغبون في الصعود فليكن طريقكم عبر هذا المنحنى حيث يمضي كل من يرغب في الوصول إلى أرض السلام".

ونظر دانتي إلى أعلى فرأى ملاك التعفف وقد توهج بالضياء لدرجة لا

تحتملها عين بشرية، فأدار الشاعر الفلورنسي رأسه جانباً. وهبت على جبينه ريح فأحس بجناحي الملاك يضربان في الهواء فيبعثان نسيماً عاطراً كنسمات الربيع التي تسبق طلوع الفجر وتحمل بين أعطافها عبير المروج والأزهار.

وعندئذ سمع الملاك يقول:

"طوبى للجياع إلى البر".

١٢- جويدو جوينسللي، وأرنوت دانيال

بينما كان الشعراء الثلاثة يشقون طريقهم إلى أعلى في الطريق الجديد لم يكن هناك أي عائق يعوق تقدمهم، لقد جاوز الوقت الظهيرة بقليل، واكتمل الضياء. وسار ثلاثتهم الواحد خلف الآخر في صف واحد لأن الطريق الضيق لم يكن يتسع لمرورهم جنباً إلى جنب. وتمنى دانتي لو أنه استطاع أن يسأل دليله عن الأشياء الكثيرة التي رآها إلا أنه لم يشأ أن يبدو كثير السؤال، وأخيراً فكر في الكلام ولكنه لم يتفوه بلفظة واحدة حتى استحثه فرجيل على الحديث، مثله مثل الطائر الصغير الذي تحدوه رغبة في التحليق في الجو فيفتح جناحيه ليطير فلا يجرؤ أن يغادر عشه، وأخيراً وجه إلى مرشده كثيراً من الأسئلة تدور حول ما رأى من ألوان التطهير، فأجاب فرجيل على كثير من أسئلته، وأجابه ستاتيوس على البقية الأخرى لأنه كان خبيراً بطبيعة هذه الطبقة.

ثم وصل ثلاثتهم إلى الطبقة التالية –الطبقة السابعة– فإذا بها قد امتلأت بالنيران والحرائق الهائلة، وكانت ألسنة اللهب تنتشر في سطح

المكان كله بينما أخذت رياح عاصفة تهب من أسفل، عند الحافة الكبرى فترد ألسنة اللهب إلى الخلف، وبذلك أصبح هناك طريق ضيق بين حافة الطبقة وبين النيران المتأججة. وكان هذا هو المسلك الوحيد الذي كان على السائحين اجتيازه واحداً واحداً في حيطة تامة. وتملك دانتي خوف شديد، فبينما كانت ألسنة اللهب تستعر في ناحية، كانت الهوة السحيقة تهددهم من الناحية الأخرى فقال فرجيل:

"يجب أن نسير بحذر تام، إذ من السهل أن تتعثر خطانا".

وبينما كانوا في طريقهم سمعوا أناشيد تأتي من جهة النيران، ورأوا أرواحاً تغدو وتروح وسط ألسنة اللهب، فزاغ نظر دانتي بين الطريق الذي يسلكونه وبين الأشباح التي كان من الصعب تمييزها وسط النيران المتأججة .

وكثيراً ما كان فرجيل يطلب إلى دانتي أن يركز انتباهه في الطريق ويقول له بصوت عال:

"احترس! دعني أعاونك بما لدي من خبرة".

وكانوا يدورون حول الجبل وقد أخذت شمس الأصيل ترسل أشعتها على كتف دانتي الأيمن، وبينما كان يمر أمام ألسنة اللهب، كان ظله يبدو أكثر توهجاً. فأخذت الأرواح تنظر إلى هذا الظل في دهشة، ولم يلبث بعضها أن اقترب منه وهي حريصة على ألا تغادر النيران حتى لا تطول مدة التطهير.

وصاحت روح من الأرواح التي تتطور وسط النيران قائلة:

"أنت يا من تسير إلى خلف هاتين الروحين في وقار، أجب على سؤال

من يتلظى وسط النيران. إن رفاقي بدورهم يتوقون إلى جوابك، فكيف يكون لجسمك ظل على الأرض من أشعة الشمس كما لو كنت طليقاً خارج شبكة الموت؟".

فحدثه دانتي عن رحلته وأسبابها وكيف أنه لا يزال على قيد الحياة.

ثم استطرد قائلاً:

"ولكن حدثني –ولتكن السماء مثواك عما قريب– من أنت، ومن أي إثم تطهر نفسك؟".

ودهشت الأرواح عندما علمت أن دانتي لا يزال على قيد الحياة، فأخذت تحملق فيه، مشدوهة لا تنطق بكلمة واحدة، كما يفعل الريفي الجلف الذي يقطن أقاصي الدولة عندما تطأ قدماه أرض العاصمة للمرة الأولى.

وما لبث أن أجابه أحدهم بعد قليل قائلاً:

"فلتباركك السماء يا من جئت لتقف على ما يدور في جبلنا لتعيش عيشة أكثر ورعاً وتقوى! إننا نتلظى في هذه النيران، لأننا لم نكن أطهار في حياتنا الدنيا، ولذا فإننا نتطهر من خطايانا في النار، وسأذكر لك بعد قليل من الوقت أسماء الذين يقيمون في هذا المكان. أما الذي يتكلم إليك الآن فهو جويدو جوينسللي.

عندئذ تأثر دانتي وامتلأ قلبه حباً وإجلالاً لأنه كان يعرف في صاحب هذه الروح شاعراً يستحق كل تقدير، نظم أروع القوافي التي تعلم منها دانتي نفسه الكثير عن صياغة الشعر، وتمنى دانتي لو عانق هذه الروح غير

أنه لم يستطع الاقتراب منها بسبب النيران، فأخذ يتفرس فيها طويلاً، وأخيراً كشف له عن شخصيته وأعرب له عن رغبته الصادقة واستعداده لخدمته بأية طريقة ممكنة في حدود قدرته. فقال له جويدو:

"إذا صدق سمعي، فأنت الذي قد خلفت -بروائع شعرك- تراثاً لن يغمره أبداً "نهر النسيان" بمائه الوفير، وإذا كنت تمتدح ما نظمت من قوافي، فأمامك الآن شاعر فاقني في هذا الميدان بكثير".

ثم أشار إلى إحدى الأرواح وسط ألسنة النيران وحياها أجمل تحية وناداها باسم أرنوت دانيال، الذي ذاعت شهرته بين شعراء البروفانس.

واختتم جويدو حديثه قائلاً:

"إذا كنت من الموعودين حقاً بزيارة ذلك الملكوت، فأرجوك أن تصلي من أجلي هناك صلاة واحدة". ثم اختفى جويدو خلال ألسنة اللهب كسمكة تختفي في جوف الماء.

وتحدث دانتي بشوق وإجلال إلى أرنوت دانيال الذي أجاب عليه بلهجة البروفانس قائلا:

أنا أرنوت الذي يبكي ويستمر في الإنشاد. إني أفكر في حماقتي الماضية وأرقب بارتياح سعادتي المرتقبة، فأرجوك أن تتذكر شقائي فتطلب لي الرحمة في الوقت المناسب!".

ولم يلبث أن أختفي بدوره خلال نيران التطهير.

١٤- السائحون يسيرون وسط النيران المطهرة ويدخلون جنة الأرض

بدأت الشمس تؤذن بالمغيب، وبدأ الليل يرخي سدوله عندما ظهر "ملاك الطهر" أمام السائحين، وكان واقفاً وسط الطريق الضيق بين ألسنة اللهيب وبين حافة المنحدر، يقول في صوت واضح مجلجل:

"طوبى لأنقياء القلب".

وما إن اقترب ثلاثتهم منه حتى قال:

"أيتها الأرواح التي تطهرت.. سوف لا تبرحن هذا المكان إلا بعد أن تشعرن بلفح اللهيب، ادخلن فيها وبينما تشققن طريقكن بين ألسنتها، استمعن إلى الغناء على الجانب الآخر".

وعندما سمع دانتي كلام الملاك استولى عليه الخوف وأصبح كمن ينتظر الموت، ونظر إلى النيران فرأى أمامه أشباحاً مخيفة لأجسام بشرية تحترق.

فالتفت إليه فرجيل وستاتيوس في عطف ثم قال له شاعر الرومان:

"قد تشعر بالألم في هذا المكان يا بني، ولكنك لن تموت، تذكر، وفكر جيداً كيف انتقلت بك في أمان على ظهر جيريون فهل تعتقد بعد ذلك أنك ستكون أقل أمناً في هذا المكان، بعد أن غدوت أقرب إلى الله من ذي قبل؟ واعلم جيداً، بل تأكد، أنه لو قدر لك أن تبقى وسط هذه النيران ألف سنة بأكملها، فلن تفقد شعرة واحدة، وإذا ساورك أي شك فيما أقول، فضع طرف ثيابك في النار لترى! دع عنك كل خوف، واقترب مني ودعنا نمض إلى الأمام في أمان".

وظل دانتي واقفاً متردداً خائفاً، فتحدث إليه فرجيل ثانية وقال:

"اعلم يا بني أن حاجز النيران هذا يفصل بينك وبين بياتريشي".

وما إن سمع دانتي هذه الكلمات الحبيبة حتى خفق قلبه والتفت إلى زميليه وأظهر استعداده لمواجهة اللهيب، فابتسم فرجيل كما يبتسم لطفل تحققت أمنيته في الحصول على تفاحة، ومن ثم اندفع ثلاثتهم وسط النيران، وأخذ دانتي مكانه بين مرشده وبين ستاتيوس، وعندما أحس لفح اللهيب تمنى لو أتيح له أن يلقي بنفسه في زجاج منصهر، فهو يعد بارداً بالنسبة إلى سعير هذه النيران المروعة.

وأخذ فرجيل وهو في طريقه يحدث داني عن بياتريشي ليحثه على السير وقال:

"يخيل إلى أنني أرى عينيها".

ثم سمعوا صوتاً يغني في الناحية المقابلة، فاتجهوا إليه وأخذوا ينصتون إليه حتى خرجوا من وسط النيران.

وطرق أسماعهم صوت ينبعث من هالة مضيئة لامعة ويقول:

"تعالوا إلى يا من بارككم الرب".

ثم تابع ذلك الصوت الملائكي حديثه قائلاً:

"إن الشمس تختفي، والليل يقبل، فلا تتوانوا، وعليكم أن تسرعوا خطاكم قبل أن ينتشر الظلام الحالك".

ووجد السائحون أنفسهم يقفون أمام المرقي التالي عبر الصخرة، وقد

أخذت أشعة الشمس تخفق باهتة وهي تؤذن بمغيب من خلفهم، وما إن صعدوا خطوات قليلة حتى اختفى ظل دانتي من فوق الأرض بعد أن غربت الشمس.

وقبل أن يحل الليل وينشر الظلام ألويته السود، توسد كل من السائحين درجة من درجات السلم الصخري لأن قوانين المطهر كانت لا تجيز لهم الصعود أثناء الليل.

وبقي دانتي في رعاية فرجيل وستاتيوس، وجلس ثلاثتهم تحت صخرة عالية تحيط بهم من الجانبين، وكانوا كالراعي الذي يتكئ على عكازه وقت الظهيرة وهو يحرس عنزاته التي هدأت وركنت إلى السكينة بعد أن تعبت من الجري والحركة وهي ترعى فوق المرتفعات، أو كانوا كالغنام الذي يقضي ليله بجوار قطيعه يرعاه حتى لا يهاجمه حيوان متوحش ويشتت شمله .

لم يكن في استطاعتهم أن يميزوا إلا القليل مما يحيط بهم، ولقد انصرف دانتي إلى مراقبة النجوم التي بدت أكبر حجماً وأكثر بريقاً مما هي عليه. وبينما كان غارقاً في تأملاته غلبه النوم.

ورأى في نومه قبيل الفجر غادة حسناء تسير في روضة غناء تقطف الأزهار وتغني وتقول:

"أنا ليئة، أشغل نفسي بقطف الأزهار لأعمل لنفسي إكليلاً. أما شقيقتي راحيل فتقضي يومها أمام المرآة، إنها تجد لذة في التأمل أما أنا فأجد متعة في العمل".

ولما أقبل الفجر وأشرقت تباشير الصباح، انتهى الحلم، واستيقظ دانتي من نومه فنهض ووجد فرجيل وستاتيوس على استعداد للرحيل، وعندئذ قال له فرجيل:

" اليوم، يا بني، ستتحقق جميع رغباتك، فسوف تجد فاكهة السعادة اليانعة التي يبحث عنها الناس أجمعون".

ولم يسمع دانتي في حياته كلاماً أعذب وأحلى من هذا، فتحرق شوقاً ليصعد إلى أعلى الجبل لدرجة أنه شعر كأن له جناحين يطير بهما.

وعندما وصل ثلاثتهم إلى أعلى درجة من درجات السلم، التفت فرجيل ثانية إلى دانتي قائلاً:

"لقد رأيت يا بني النار الأبدية والنار المؤقتة، وسرت في الجحيم وفي المطهر، والآن... لقد بلغت مكاناً ليس في وسعي أن أصطحبك بعده. لقد جئت بك إلى هنا ولن تعترضك بعد الآن ممرات ضيقة أو طرق وعرة، أنظر الشمس تضيء جبينك، والحشائش الخضراء اليانعة، والأزهار، والنباتات التي تخرجها الأرض من تلقاء نفسها.

وبينما تنتظر هذه التي أمرتني، وهي تبكي، بأن أذهب إليك وأساعدك، يمكنك أن تجلس في هذا المكان الجميل أو تتريض وفقاً لهواك، لا تنتظر مني إشارة أو توجيهاً بعد الآن، لقد أصبحت حراً طليقاً، كل شيء يتوقف على رغبتك –وعلى ذلك فسوف أتوجك لتصبح سيد نفسك".

و هكذا دخل دانتي جنة الارض التي توجد على قمة جبل المطهر.

١٥- ماتىلداتحي السائحين في الفردوس الأرضي

تلفت دانتي في لهفة فرأى غاية نضرة واسعة الأرجاء، فتملكته رغبة جامحة ليدخلها، فلم ينتظر أية كلمة من فرجيل وترك حافة الجبل وعبر الوادي في خطوات وئيدة مترددة، ذلك لأنه كانت تنبعث من الأرض التي يسير عليها رائحة عطرة زكية.

كان كل شيء جميلاً.. كان نسيم الفجر العليل يداعب جبينه، ويثني فروع الأشجار حيث كانت تتردد أغاريد الطيور الصغيرة، بينما كان حفيف الأوراق يستعد لاستقبال نسمات الصباح.. أخذ دانتي يجوس خلال الغابة، وتغلغل فيها حتى أصبح لا يستطيع رؤية المكان الذي دخل منه، ثم انتهي به المطاف إلى نهر صغير تداعب أمواجه الرقيقة الحشائش التي نبتت على ضفتيه، ومع أنه كان يجري تحت ظلال الغابة تلك الظلال الأبدية، لكن مياهه كانت صافية جداً حتى إن أكثر أنهار الدنيا صفاء لتبدو ملوثة داكنة إزاءها.

وتوقف دانتي عن المسير، وأخذ ينظر إلى النهر والأزهار اليانعة العديدة التي تفتحت هناك، وعلى حين فلجأة ظهرت له غادة هيفاء تغني وهي تسير بمفردها وتقطف الورود التي تصادفها.

فناداها قائلاً:

"أتوسل إليك أيتها السيدة الحسناء أن تقتربي قليلاً من النهر حتى أشنف سمعي بأغانيك.. إن جمالك يذكرني بجهال بروسربينا عندما افتقدتها أمها فلم تر الربيع بعد ذلك أبداً.

لم تكن هذه السيدة إلا ما تيلدا، وقد لبت نداءه فأخذت تقترب من النهر، وتتهادى فوق الأزهار الحمراء والصفراء. ولما بلغت شاطئه حيث بللت أمواجه الهادئة العشب، نظرت إلى دانتي وابتسمت له وهي تقطف الأزهار. ولم يكن يفصل بينها وبين السائحين سوى ثلاث خطوات هي عرض النهر، فأخذت ماتيلدا في الحديث إليهم وقالت:

"لقد جئتم حديثاً إلى هذا المكان، ولعلكم تدهشون لأني أضحك وأغني، ولكنني أذكر بالحمد والثناء عظمة ربي فيها صور وأبدع، وإذا كان هناك ما يجب أن تعرفوه، فقد حضرت هنا وأنا على أتم استعداد لإجابتكم إلى ما تطلبون... وأنت يا من تتقدم رفاقك وتتحدث إلي.. ألا حدثني بما تريد أن تعلم؟"

فسألها دانتي مستفسراً عن المكان الذي يسيرون فيه، وعن النهر، فأجابته ماتيلدا أن هذه الحديقة جنة عدن، فردوس الأرض التي وهبها سبحانه وتعالى لابن آدم فلم يبق فيها إلا وقتاً قصيراً ثم زل فملأها نحيباً ونصباً؛ وأخبرته أيضاً أن النسيم الذي داعب جبينه إنما يحمل إلى الأرض بذور النباتات والأشجار التي تنبت في هذه الجنة دون بذر أو غرس، ثم قالت:

"إن هذا النهر لا يستمد ماءه من منبع كبقية أنهار الدنيا التي تغذيها مياه الأمطار، لكنه ينبع من ينبوع حار لا ينضب معينه، فما يفقده من مياه يستعيده ثانية، لأن هذه هي مشيئة الله. وخرج من هذا الينبوع نهران أحدهما نهر ليثا[٣٩] أي النسيان الذي ينسي من يشربون منه كل إثم

(39) Lethe.

ارتكبوه؛ وثانيهما نهر ينوءا[٤٠] الذي يساعد من يشربون منه على تذكر كل خير عملوه. ومياه نهر ينوءا أكثر عذوبة من أي نهر آخر، ولكن كان يتحتم على الإنسان أن يذوق ماء ليثا أولاً.

"كان بنو البشر الذين ينزلون في هذا المكان أطهاراً، ويحتمل أن الشعراء القدماء الذين تغنوا بعصر البشرية الذهبي في العصور القديمة كانوا يعلمون أو يتخيلون هذا الفردوس عندما نظموا أشعارهم".

هكذا تحدثت ماتيلدا وما كادت تنهى كلامها حتى ابتسم فرجيل وستاتيوس لأن الشعراء في زمنهما وصفوا العصر الذهبي، وبدأت ماتيلدا في الغناء من جديد.

"طوبى للذي غفر إثمه وسترت خطيته".

ثم عاودت مسيرها على شاطئ النهر وهي تغني كالحوريات اللاتي كانت تسير في الأيام السالفة تحت ظلال الغابة، وعلى الجانب الآخر من النهر سار دانتي إزاءها كلما خطت خطوة خطاً مثلها...

وبعد مسافة قصيرة، وبينما هم في طريقهم انحرف بهم النهر إلى الشرق فالتفتت ماتيلدا إلى دانتي قائلة:

"أخي.. أنظر وأنصت!"

١٦- موكب الكهنة

صدع دانتي لأمر ماتيلدا فنظر إلى الأمام فرأى نوراً يسطع فجأة في

---

(40) Eunoe.

جميع أرجاء الغابة، فحسبه أول الأمر برقاً خاطفاً، ولكن لما كان البرق يلمع ويخبو بسرعة خاطفة، بينما كان هذا الضوء يزداد توهجاً ويزداد بريقاً، فقد عجب دانتي من أمر ذلك الضوء وتساءل ما عساه أن يكون.

وبينما كان ينظر إليه خيل له أن الجو قد امتلأ ناراً تشتعل تحت فروع الأشجار الخضراء، ثم سمع أنغاماً حلوة شجية يرن صداها في ربوع الغابة، ثم ظن أنه رأى سبع شجرات ذهبية على بعد، ولكن لما اقترب منها اتضح له أنها شمعدانات مضاءة، وسمع فيها سمع عبارة: سبحان الله!

وكانت الأضواء تنبعث من الشمعدانات قوية في الفضاء أقوى من ضياء البدر في سماء صافية عند منتصف الليل، فالتفت دانتي إلى مرشده متعجباً، غير أن فرجيل لم يكن أقل منه عجباً. وعندئذ صاحت ماتيلدا قائلة:

أنظروا! لا تلتفتوا إلى الأضواء فحسب، بل أنظروا إلى ما وراءها!"

فرأى: السائحون أناساً قادمين وكلهم في ثياب بيضاء ناصعة لا يدانيها بياض على الأرض. وكانت مياه النهر إلى جانب دانتي تعكس كل هذا البريق، ولم يعد يفصل بينه وبين الركب غير النهر، فتوقف عن المسير ليتسنى له مشاهدته بوضوح، وكان يتقدم هذا الركب المشاعل فوق الشمعدانات السبع، ومضت في طريقها تجر وراءها خيوط النيران، فبدأ الجو وكأنه سبعة أعلام في لون قوس قزح تنساب إلى الوراء بعيداً عن دانتي .

وكان إلى الخلف منهم، أربعة وعشرون شيخاً في ثياب بيض وقد

تكللت بزهر الزنبق يتغنون للأم الطاهرة ويقولون:

"مباركة أنت بين بنات آدم"

وعندما مضت تلك الصفوة المختارة من الناس فوق الأزهار اليانعة والحشائش الخضراء التي نبتت على الشاطئ الآخر من النهر، ظهرت من خلفهم أربعة حيوانات تكللت هاماتها بأوراق الشجر الأخضر، وتبع الواحد منها الآخر كما تتبع النجوم بعضها في السماء. وكان لكل منها ستة أجنحة كلها عيون ناظرة. وبين هذه الحيوانات الأربعة كانت تسير عربية نصر صغيرة ذات عجلتين يجرها حيوان الغرفين[٤١]، امتد جناحاه الذهبيان اللذان يحاكيان جناحي النسر إلى أعلى بعيداً عن مدى البصر بين الأعلام المنيرة، وكان رأسه ذهبياً، وجسمه الذي يشبه جسم الأسد أبيض قرمزيا.

ولم تكن عربات روما الظافرة تساوي شيئاً إلى جانب العربة التي يجرها هذا الحيوان، بل إن عربة الشمس ذاتها لتبدو حقيرة بالنسبة إليها...

وكان على مقربة من عجلة العربية اليمنى ثلاث نساء ينشدن، وكانت أولاهن حمراء اللون كأنها النار المتأججة، والثانية خضراء زاهية كأنها الزبرجد، وأما الثالثة فقد كانت في بياض الثلج، وقد سارت إلى جانب العجلة اليسرى أربع أخريات يرتدين ثياباً أرجوانية اللون، أما المرأة التي كانت تقود المنشدات فقد كان لها في رأسها ثلاث عيون. وكانت هذه

---

(٤١) الغرفين Grifton حيوان أسطوري له جسم أسد، ورأس نسر وجناحان.

النساء ترمز إلى الفضائل السبع.

وخلف هذه المجموعة سار شيخان يختلفان في الزي، ويتشابهان في الهيئة، كان أحدهما يرتدي ملابس الأطباء، وكان الثاني يحمل سيفاً لامعاً ذا حدين. وكان يتبعهما أربعة آخرون يبدو أنهم أقل منهما درجة. وسار وراء الجميع شيخ حاد البصر يبدو كأنه مستغرق في رؤيا، وكان هؤلاء الشيوخ السبعة يرتدون ملابس بيضاء بينما كانت رءوسهم متوجة بأكاليل حمراء، فكانت كألسنة اللهب فوق العيون.

ولما وصلت العربة أمام دانتي دوى رعد شديد فتوقف الركب عن المسير، والتفت الشيوخ الذين كانوا يمضون إلى الأمام نحو العربية ثم هتفوا ثلاث مرات:

"تعالي يا عروس لبنان" ثم نهض مائة ملاك ووقفوا على العربة يرددون أغاني المديح، وينثرون الأزهار، وفي وسط غمامة الأزهار ظهرت فتاة تتشح بثوب كلون النار يعلوها معطف سندسي وقد تكللت هامتها بأغصان الزيتون وتدلت على قناعها الذي في بياض الثلج، ونهضت فبان نصفها واختفي النصف الآخر وراء الأزهار المتساقطة، كالشمس عندما يحجبها الضباب عند مطلع الفجر.

ورغم أن دانتي لم يستطع أن يتبين وجهها، فإن شعوره الباطن عرف فيها فتاته بياتريشي التي أحبها لفترة من الزمن، وما إن عاوده سلطان حبه القديم حتى التفت إلى فرجيل وهو يرتعد كطفل يلقى بنفسه في أحضان أمه عندما يفزع من شيء يخفيه أو يؤلمه.

ولكن فرجيل كان قد تركه، ومضى.. فرجيل ذلك المرشد والأب الحنون، لم يعد معه، ولم تستطع جميع هذه المناظر الخلابة العجيبة أن تحول بين دانتي وبين دموع الألم لفراق مرشده.

١٧- بياتريشي وتوبة دانتي النهائية

"لا تبك يا دانتي لأن فرجيل تركك، لا تبك الآن فسوف تبكي عن قريب من أجل شيء آخر".

وسمع دانتي هذه الكلمات بينما كان قد نكس رأسه حزناً على رفيقه.

وما كاد يرفع بصره حتى رأي نفس السيدة التي سبق أن رآها بين الأزهار المتراكمة على العربة، وكانت تتحدث إليه والحجاب يكسو وجهها، ولذا لم يستطع أن يتبين ملامحها، ولكنها كانت تبدو في مظهر ملكة عابسة صارمة.

وعندئذ قالت له:

"تمعن فيّ.. إنني بياتريشى نفسها! فكيف تجاسرت على الاقتراب من الجبل؟

فنظر دانتي إلى الأرض خجلاً لأنه كان يشعر بذنبه، فبعد أن ودعت بياتريشي الحياة الدنيا ضل طريق الرشاد، وأهمل الفضيلة، وكان يعرف ذلك وأخذ يبكي بكاء مراً، وكانت الملائكة تشدو وهو يبكي وتقول:

" يا إلهى. لقد وضعت فيك كل ثقتي".

وكانت الملائكة تواسي دانتي بغنائها، وكانت تبدو وكأنها تقول

لبياتريشي:

"لماذا تخجلينه هكذا أيتها السيدة؟".

ثم التفتت إلى الملائكة وقالت:

" لقد غرست في هذا الرجل جميع بذور الخير عندما كان شابا، وكنت مرشدته وأنا على الأرض تهديه عيناي إلى الطريق المستقيم، ولكن بعد أن تركت جسدي وصعدت إلى السماء ازددت تمسكاً بالفضيلة، وأصبحت أشد رحمة، ومع ذلك فقد قل حبه لي وحاد عن جادة الصواب، وانساق وراء الأوهام الكاذبة وغرق فيها حتى أصبح لا سبيل إلى إنقاذه إلا بعد زيارة القوم الضالين أولاً. لذلك نزلت إلى طبقة لمبو، وهناك ذرفت الدموع وتوسلت إلى فرجيل ليكون دليله. إن الناس ليسخرون من العدالة الإلهية لو أنه جاء إلى مكان الاسرار العظيمة قبل أن يقدم ما يكفر عن ذنوبه وآثامه.

ثم التفتت إلى دانتي ثانية وقالت:

"تكلم! ألست صادقة فيما أقول؟ لقد اتهمتك، فإذا أردت أن تمضي إلى الأمام، يجب عليك أن تعترف بخطاياك".

وألقى دانتي ببصره إلى الأرض خوفاً وخجلاً، ولم يستطع الكلام وتوقفت بياتريشي قليلاً عن الحديث ثم قالت:

"والآن.. أجب فإن مياه ليثا لم تمح بعد ذكرى آثامك".

فأجاب دانتي في خوف وخجل، ثم أخذت في لومه وتأنيبه، وأوضحت

له أين ضل سبيله، وكيف قدر له أن يواجه هذه التجربة؛ وكانت بياتريشى تبدو وضاءة المحيا جميلة فاتنة، فلم يحتمل دانتي أن يرفع بصره إليها؛ ثم سقط فاقد الشعور عندما استيقظ ضميره وفاض به الحزن.

وعندما أفاق رأى ماتيلدا تقول:

"تعلق بي! تعلق بي".

ولم يلبث أن رأى نفسه غارقاً حتى رقبته في ماء النهر الذي كانت ماتيلدا تتهادى في خفة على صفحته.. ثم غيرت رأسه في الماء وجعلته يشرب منه، ثم دفعته إلى الشاطئ الآخر، وهناك سمع أصواتاً رقيقة تغني:

"اغسلني، فأبيض أكثر من الثلج".

ثم أخذته النساء اللاتي كن ينشدن إلى جانب عجلات العربة، ورفعنه إلى بياتريشي، وأمره أن ينظر إلى عينيها التي كانت تنعكس فيها صورة الغرفين المتقلبة.

وقالت النسوة:

" نرجو أن تجودي بنظرة من عينيك المقدستين على هذا الرجل الذي أخلص لك وقطع هذه المسافة الطويلة في البحث عنك. فهلا تفضلت وكشفت عن وجهك حتى يستطيع أن يتعرف على طلعتك البهية !".

وأخيراً كشفت بياتريشي عن نفسها، وهنا لا يمكن للكلمات أن تعبر عن جلال ذلك القبس الإلهي الذي انبثق منها، ثم افتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة لدانتي، وبدت له كأنها فتاته التي هام بها حباً وهو على الأرض،

وطالت ابتسامتها حتى لقد فقد بصره فترة من الزمن كن ينظر إلى قرص الشمس.

وعندما استطاع أن يعيد النظر إليها، رأى الركب كله يلتف حولها ويتحرك قادته إلى ناحية الشرق، وبعد أن مر الجميع، جر الغرفين العربة إلى الأمام تتبعها ماتيلدا إلى اليمين.. إلى جانب دانتي وستاتيوس، ثم ساروا جميعاً عبر الغابة الفصيحة الموحشة، وبينما هم يسيرون، أخذت جماعة من الملائكة ترتل.

وما إن ابتعدوا مسافة تقدر بمرمى قوس ثلاث مرات، حتى بلغوا شجرة يابسة لا تحمل أوراقاً ولا فاكهة، اسمها "شجرة معرفة الخير والشر"، وكانت شاهقة الارتفاع، تتسع فروعها عند قمتها، وتضيق عند جزعها.

وجر الغرفين العربة إلى قاعدة الشجرة، وشدها إلى ساقها، وعندئذ اخضرت لساعتها وتفتحت عن أزهار مختلفة الألوان، فمن أحمر أرجواني إلى أزرق بنفسجي، وكانت كشجرة أرضية تخضر وتزهر في الربيع، ثم بدأ الركب المقدس في الغناء، وفي أثنائه أخذ النوم يداعب جفون دانتي ثم استولى عليه سبات عميق.

١٨- وفي النهاية يتطهر دانتي

بعد أن رأى بصورة رمزية كثيراً من العجائب ما كاد دانتي يغط في نومه حتى استيقظ على نور قوي أطار النوم من أجفانه، ثم سمع صوتاً يقول:

"استيقظ!"

وإذا به يرى ماتيلدا التي كانت قد رافقته عبر النهر، تنحني وتميل عليه، فصاح في دهشة قائلا:

" أين بياتريشي؟"

فأجابته ماتيلدا:

"ها هي ذي تجلس هناك مع رفيقاتها تحت الشجرة المزهرة حيث سبقها الآخرون في أعقاب الغرفين.

وشاهد دانتي بياتريشي وهي تجلس تحت الشجرة تحرس العربية التي تركبها الغرفين مشدودة إلى جذع الشجرة. وكانت الراقصات السبع يقفن من حولها وبأيديهن الأعلام النارية الخافقة.

وتحدثت إليه بياتريشي وقالت:

"عليك أن تبقى في هذا المكان فترة قصيرة من الوقت وبعد ذلك ستبقى معي إلى الأبد في هذه المدينة".

(م – ١٢ دانتي)

ثم أضافت:

"ولكي تفيد العالم الضال، عليك الآن أن تدقق النظر في عربة الكهنة، لتكتب ما ترى بعد عودتك إلى الأرض".

وأخذ دانتي يحملق في العربة، فرأى مناظر عجيبة تفوق الحصر؛ لقد انقض على الشجرة نسر فمزق لحاءها وأوراقها وأزهارها، ثم اصطدم بالعربة فجعلها تتمايل في عنف كسفينة في مهب الرياح.

وبعد ذلك قفز ثعلب جائع إلى داخل العربة فأسرعت بياتريشي بطرده، وإذ ذاك عاد النسر إلى العربة وأخذ ينثر عليها من ريشه، ثم ظهر تنين وحطم العربة، غير أنها استردت على ما يبدو حالتها الطبيعية مرة واحدة، وعندئذ انبثق من العربة سبعة رءوس ثلاثة منها لها قرون تشبه قرون الثور، وأربعة لكل منها قرن واحد، فبدت العربة وكأنها وحش غريب الخلقة، وجلست فوقها امرأة متبذلة وإلى جانبها مارد أخذ يضربها بالسوط.

ولم تمنه المفاجآت العجيبة عند هذا الحد، بل رأى دانتي أشياء غريبة أخرى، ثم نهضت بياتريشي وأخذت تشق طريقها إلى الأمام، وهي تنادي دانتي ليأخذ مكانه إلى جوارها، وأخذت تتحدث إليه عما شاهده في أثناء رحلته، وشرحت له كل ما رأى وفسرت له معانيه الرمزية، ثم عادت وأمرته أن يذكر كل ما حدث في رحلته وأن يحدث به الناس أجمعين.

وعند الظهيرة توقف الركب بالقرب من حافة الظلال التي تلقيها فروع الغابة الموحشة على نافورة ينبع منها نهران.

وقال دانتي لمرشدته الجديدة:

"يا نور البشرية، ما هذه المياه التي تتفجر من منبع واحد ثم تتفرع هكذا؟"

وكانت الجرعة التي تجرعها دانتي من مياه نهر ليثا قد أنسته ما كان يعرفه عن مياه هذا النهر. فقد سبق له أن شرب من مياه ليثا فنسى كل خطاياه، وكان النهر الآخر نهرا ينيوي الذي تساعد جرعة منه على تذكر

كل عمل من أعمال الخير.

وأصدرت بياتريشي أمرها إلى ماتيلدا أن تقوده إلى هناك ليتناول جرعة ثانية، فصدعت ماتيلدا الشفيقة بما أمرت، وأمرت بدورها ستاتيوس أن يقترب منها.

لا يمكن للكلمات أن تصف عذوبة هذا الماء، لقد شرب دانتي من هذا النهر الخالد حتى ارتوى، ونهض من مكانه وقد تطهر من آثامه وخطاياه، وأصبح طاهراً كطفل ولدته أمه، مستعداً لأن يصعد إلى السماء.

الفردوس

١- دانتي ينتقل إلى سماء القمر

شاهد دانتي حتى ذلك الوقت طبقات وادي جهنم، وطبقات جبل المطهر جميعها، ولم يبق عليه إلا أن يلج السماء التي تتجلى فيها أسمى مظاهر عظمة الله. ليس في مقدور أحد أن يصف هذه المملكة المقدسة وصفاً تاماً؛ بل إن الحديث عن جزء منها يحتاج إلى مساعدة أبوللو وعرائس الفنون جميعاً!

كان الوقت ظهراً في المطهر، بينما كان دانتي يحدق النظر في بياتريشي، رآها تتجه ببصرها نحو الشمس، فحذا حذوها، وعندئذ خيل إليه أنه يرى الشرر يخرج من قرص الشمس، وقد أخذ ضوؤها يزداد توهجاً حتى اعتقد أن هناك شمساً ثانية في السموات. ولما كان دانتي بشراً لم تحتمل عيناه شدة الضوء، فأعاد النظر إلى بياتريشي التي كانت لاتزال تنظر إلى الشمس، وإذا بالوهج ينتشر وينتشر حتى بدت صفحة السماء وكأنها بحيرة هائلة من السماء، ثم طرقت سمعه أنغام موسيقى تنبعث من الأجواء العليا.

وبينما كان دانتي محملق ببصره واستمع وهو حائر، علت ثغر بياترشي ابتسامة وهي تقول:

"إنك مخطئ فيما تظن، لقد تركت الأرض وأنت الآن في طريقك إلى السماء، إن الله يرجع إليه كل شيء آخر الأمر في ملكوت الكون الشاسع، فالأرواح الطاهرة تصعد هناك إلى مكانها الطبيعي".

قد يكون من العسير وصف رحلة سماوية في إيجاز، بيد أن رغبة دانتي

في القيام بها والصعود إلى السماء جعلته أسرع من السهم الطائر، وظلت بياتريشي تنظر إلى أعلى، وعين دانتي لا تفارقها حتى بلغا مكاناً عجيباً اجتذب انتباه دانتي فأخذ ينظر إليه، وعندئذ التفتت إليه بياتريشي وقالت:

"عليك أن تقدم الشكر خالصاً لله سبحانه الذي هيأ لنا السبيل لنبلغ السماء الأولى".

وخيل إليهما أنهما يتغلغلان وسط سحابة متجمدة يشع منها الضوء، مصقولة كأنها ماسة تعكس أشعة الشمس، وكانت هذه السحابة هي الدرة الأبدية للقمر، أول الأجرام السماوية، وأول الكرات المتحركة التسع التي للفردوس، والتي تتوجها جميعاً وتشرف عليها سماء عليين، مقر العلى العظيم، لا يحدها زمان أو مكان.

وذكرت بياتريشي لدانتي الكثير عن تكوين السموات، وكيف أن كل سماء منها ما هي إلا صورة منعكسة من حب الله. وبينما كانت تتحدث إليه، كانت توضح له كثيراً من الأمور السامية الصعبة، فرفع رأسه ليشكرها، فإذا به عندئذ يرى أمامه صوراً لوجوه بشرية باهتة معتمة، أبدت كلها رغبة في التحدث إليه. وكانت هذه الوجوه تشبه ظلالاً خفيفة لرجل انعكست صورته في بحيرة صافية ضحلة للغاية، أو في كوب من زجاج رقيق شفاف، وظن دانتي أن هذه الظلال لأشخاص وقفوا وراءه، فنظر إلى الخلف لكنه لم ير شيئاً. فالتفت إلى بياتريشي مستفسراً، فابتسمت وقالت:

"هذه مخلوقات حقيقية وليست ظلالاً، حضرت إلى هذا المكان

لترحب بمقدمك فتحدث إليهم".

عند ذلك نظر دانتي إلى طيف من هذه الأطياف الهزيلة وقال:

"أيتها الروح الكريمة التي تتمتعين هنا بنعمة الحياة الأبدية.. إنني تواق لأن أسمع اسمك وما قدر لك."

فأجابته الروح بشغف واضح والسرور يفيض من عينيها:

"سوف أجيبك عما تريد بكل ارتياح، ومهما يكن من أمر التغير الذي يبدو علي، فإنك إذا تفرست في وجهي فستعرف أنني بيكاردا دوناتي أخت صديقك فوريسا. عندما كنت فتاة صغيرة هجرت العالم واتبعت تعاليم القديسة كلارا، فلبست الرداء الذي يفرضه نظامها وارتبطت بعهود أتباعها، وأخيراً انتزعني قسراً من الدير العزيز قوم يغلب عليهم الشر، وينكرون الخير؛ والله وحده يعلم ما آلت إليه حياتي بعد ذلك.

"وهنا إلى يميني ترى عظمة الإمبراطورة كونستانس. إنها كانت بمثابة أخت لي، لقد انتزع القناع المقدس من فوق رأسها أيضاً، ورغم عودتنا إلى حياتنا العادية في الدنيا لم ننس العهود التي قطعناها على أنفسنا. إننا نقيم هنا بمشيئة الله، وسوف نهتدي بإذنه تعالى".

واختتمت بيكاردا حديثها، ثم بدأت ترسل أنشودة دينية عذبة. وأخذت تختفي وهي تغني في جنبات اللؤلؤة التي كانت تحيط بهذا المكان، واندفعت إليها كما يندفع جسم ثقيل في أعماق اليم..

وأخذت بياتريشي تحدث دانتي من جديد، وتفصل الحديث إليه

تفصيلاً...

لقد علمته في الواقع أشياء كثيرة، وكلمته عن حقائق عميقة معقدة، أثناء رحلتهما في الأفلاك الدائرة.

٢ - سماء عطارد وقصة النسر الروماني المشرفة

وكما حدث قبل أن يغادرا الأعراف، حلقت بياتريشي إلى أعلى ووقفت مأخوذة، ثم صعدت مع دانتي إلى الطبقة الثانية بسرعة السهم الذي يصل إلى مرماه قبل أن يكف وتر القوس عن الاهتزاز. وبدا على بياترتشي البشر وتألق وجهها فرحاً عندما وصلت إلى هذه الطبقة السماوية التي ازدادت تألقاً على تألق. وكما يتجمع السمك في بركة صافية حول شيء سقط فيها، هكذا تجمع ما يزيد على ألف من الأرواح اللامعة حول دانتي، وكل تظهر فرحتها بما يشع منها من عظمة وإجلال.

وقالت روح من هذه الأرواح:

"يا من ولدت سعيداً، فأنعمت عليك السماء بأن تلقي نظرة على "عروش النصر" قبل أن ينتهي أجلك، إن ما يشع منا هو الضوء الذي ينتشر في السموات كلها، لذلك إن أردت أن تستفسر منا عن شيء، فقل!"

وأمرت بياتريشي دانتي أن يتكلم، فابتدأ بقوله:

"أيتها الروح النبيلة، إنني أرى حقاً كيف يشع النور من حولكن ولكنني لست أدري من أنت، ولماذا وجدت في هذه الطبقة".

وكانت هذه الروح هي التي تحدثت إليه من قبل، فرآها وقد انبعث منها نور قوي جداً أحاط بها وأخفى ملامحها من شدة تألقه.

ثم أجابت الروح قائلة:

"إننب الإمبراطور جستينيان، لقد أعدت سن قوانين روما... لقد هداني أجابيتوس المبارك إلى اعتناق الدين الحق، وبعد ذلك كرست نفسي لوضع القوانين، وتركت شئون الحرب إلى صديقي المخلص بليساريوس.

وحيث إنك سألت المزيد، فسأخبرك بقصة النسر الروماني المشرفة، ذلك العلم المقدس الذي كان موضع إجلال وتعظيم منذ أن وجد. لقد كان شعاراً لألبا ما يزيد على ثلاثمائة عام، وبعد اغتصاب النساء السابينيات في عهد الملوك السبعة، غزا البلاد المجاورة ورفرف في سمائها. ثم قامت الجمهورية، وخفق النسر عالياً في الحملات التي شنت ضد "برينوس" و"بيروس" وغيرهما، كما أذل كبرياء أولئك الذين اتبعوا هانيبال عبر جبال الألب، وتحت ظل هذا النسر الخفاق انتصر سكيببو وبومبي، وبعد ذلك حمل قيصر هذا اللواء المقدس، وأنت تعلم تماماً المجد الذي حققه له إذ جعله يخفق في سماء الغال من الفار إلى الرين، ثم عبر به نهر الروبيكون واخترق به إسبانيا ثم ذهب إلى فارساليا.

وجاء أوغسطس بعد ذلك، وحمل العلم الروماني وتحت لوائه قهر بروتس وكاسيوس وألقى بهما في الجحيم، وملأ قلب أنطونيو حزناً، واستسلمت كليوباترة البائسة لهذا العلم، وفرت أمامه تصرخ وتولول حتى ماتت من لدغة الأفعى. وعندئذ ساد السلام في ربوع العالم وأغلقت بوابة

يانوس". (٤٢)

"ثم جاء طيبريوس، الذي رفع في عهده المسيح، ثم سقطت أوروشليم في عهد تيطس، وبعد ذلك أنقذت انتصارات شارلمان طوائف المتدينين من براثن اللمبارديين.

"وهكذا وطدت الإمبراطورية الرومانية دعائم السلام، وحافظت على الدين من الأخطار! والآن دب الصراع بين رجال الدين والإمبراطورية، وهذا سبب كل مصائبكم.

"وهذه طبقة عطارد تزينها أرواح أولئك الذين جاهدوا من أجل الشرف والشهرة، وبالتالي لقنوا مبادئها الإنسانية. لقد عشقنا النبل والعدالة.. وازداد حبنا لها في هذا المكان".

ثم استطرد جستينيان وقال لدانتي:

"في هذه الطبقة تسبح أيضاً روح روميو، ذلك الرجل العادل الذي تحدثنا الأساطير بأنه أتى كسائح فقير إلى بلاط الأمير البروفنسي "ريموند بيرنجر" الذي عينه مديراً لجميع ممتلكاته، وكانت للكونت ريموند أربع بنات، زفت كل منهن إلى أحد الحكام، وذلك بفضل نصيحة روميو الحكيمة وسداد رأيه .. ولما دبت الغيرة في قلوب حكام البروفنس، اتهموا روميو بإساءة إدارة ممتلكات الكونت، وطالبوه بأن يقدم حساباً عن كل ما فعل.

---

(٤٢) يانوس: إله الفتح عند الرومان الذي اشتق منه شهر يناير، وحارس أبواب المنزل، ولا تغلق بوابته إلا في أيام السلم.

"ولكن روميو كان متأكداً من استقامته، وأنه عمل على تنمية ثروة الكونت وزيادتها بالطرق المشروعة العادلة، ومع ذلك فلم يعترف الكونت بجميله، فطلب إليه أن يعطيه ما كان يملكه عند قدومه إلى ذلك المكان – بغلا وعصا ومخلاة.

"وهكذا عاد الرجل العادل كما أتى، سائحاً فقيراً .. ولم يعلم أحد مصيره بعد ذلك، لكن كثيراً من الناس عدوه قديساً".

ولم يكن جستينيان بحاجة إلى سرد تفاصيل القصة بأكملها، لأن دانتي كان يعرفها، ولكن الإمبراطور أولى روميو هذا الشرف، لأنه أدى للبروفنس ما أداه هو لروما.

وكفت روح الإمبراطور عن الكلام ثم ابتعدت وأخفت نفسها بين الأرواح الأخرى التي كانت تحيط بدانتي، وكانت تشيد بحمد الله وهي تسير.

ثم أخذت بياتريشي تشرح لدانتي أموراً دينية كثيرة، وتصف له جهاد السيد المسيح في هداية الناس إلى الدين الحق.

وكان حب دانتي لها يزداد كلما أصغى إليها، ولكن إجلاله لها كان يمنعه عن الكلام..

٣- سماء الزهرة

ثم ارتفع دانتي وبياتريشي إلى النجم التالي حيث فلك الزهرة، ولم يشعر دانتي بالارتفاع، إلا أنه علم بوصوله هناك عندما رأى بياتريشي وقد زاد إشعاعها وصارت أكثر جمالاً وتألقاً، لأنه كلما زاد ارتفاعهما في

السماء ولكما اقتربت مرشدته من النور الإلهي ازدادت حسناً وفتنة.

وكان النجم الجديد براقاً لدرجة كان يصعب معها تمييز الأرواح التي عليه، ولكن بعد برهة رآهم دانتي يرقصون في شكل دائرة، كالشرر الذي ينبعث من الشعلة المتقدة .. ثم كفوا عن الرقص وأسرعوا نحوه وهم يرتلون ويسبحون، واقترب منه أحدهم وقال:

"إننا نشبه أرواح الحب التي كتبت عنها في شعرك، ولقد أتينا هنا نستمع إلى أسئلتك".

فسأل دانتي هذه الروح عن اسمها الذي كانت تسمى به على الأرض فازدادت بهجة وبهاء وأجابت قائلة:

"إنك كنت تحبني حباً شديداً وأنا في الحياة الدنيا، ولو قدر أن امتد بي الأجل على سطح الأرض، لعملت على أن يزداد حبك لي، أنا كارلو مارتللو وريث البروفنس ونايلي". فابتهج دانتي كثيراً لأن كارلو كان على الأرض صديقاً حميماً له، وتجاذب الاثنان أطراف الحديث سوياً وقتاً طويلاً.. وعندما انصرفت روح كارلو، تقدمت روح أخرى من دانتي وأظهرت رغبتها في التحدث معه، وذلك بأن زادت لمعاناً وتلألؤا عندما اقتربت منه، ثم قالت:

"لقد كنت أختا لإزيلين الذي رأت أمه في نومها قبل مولده أنها تحمل شعلة لتحرق بها الأرض المجاورة، ثم تحققت هذه الرؤيا! كنت أسمى كونيزا الرومانية ويعيش بجواري هنا فولكو الذي ما زالت شهرته الذائعة تضرب في الآفاق.. انظر كيف يلمع!".

وعندئذ تركته كونيزا، ثم حول دانتي بصره إلى الروح التي كانت تتكلم عنها.. لقد كانت تلمع أمامه كالياقوتة المشعة التي سقطت عليها أشعة الشمس، فكلما زاد ابتهاج الأرواح في الجنة زاد تألقهم ولمعانهم، كما كانت تقاس أحزانهم في الجحيم مظهرهم الأغبر الكئيب. كان دانتي يعرف أن فولكو كان شاعراً ومنشداً ذا شهرة واسعة، ثم وهب نفسه لله، لذلك ناداه دانتي في بهجة وسرور:

"ايتها الروح المباركة، أسمعيني صوتك!"

فتكلم فولكو قائلاً:

"لقد ولدت بالقرب من ذلك البحر العظيم الذي يزخر به الوادي الجنوبي.. لقد كنت من مرسيليا وكنت أسمي "فولكو".. كنت عاشقاً في أيام شبابي ثم أصبحت راهباً."

٤ - دانتي يصعد إلى سماء الشمس ويستمع إلى قصص القديسين فرانسيس ودومينيك

تحدث فولكو قليلاً قبل الرحيل، ثم اتجه دانتي في صحبة بياتريشي إلى الطبقة السماوية التالية حيث الشمس؛ ولم يعرف دانتي كيف صعد إلى هذه الطبقة أيضاً، لقد وجد نفسه في مكان يعجز اللسان عن وصف بهائه وجلاله، وكانت الأرواح هناك أكثر إشراقاً من تلك التي رآها قبل الآن، ثم تقدمت اثنتا عشرة منها لمقابلة السائحين وأحاطت بهما كهالة من نور، وكانت الأرواح تغني أثناء سيرها غناء لا يسمع إلا في السماء ويستحيل وصفه على ظهر البسيطة، ثم التفت الأرواح حولهما ثلاث مرات كالنجوم،

وبدأت إحداها تقول:

"أيها المسافران اللذان ينعمان بهذه النعمة العظيمة، هل تعلمان أي أرواح تزين هذه الطبقة كما تزين الأزهار اليانعة أكليل الزهور؟ أنا توماس أكويناس أحد أتباع القديس دومينيك، وهذا الذي إلى يميني هو ألبرت الكولوني، وكان أخاً وأستاذاً لي".

ثم ذكر توماس أكويناس – العالم المثقف والراهب الدومنيكي – أسماء الأرواح الأخرى لدانتي؛ وكانوا جميعاً في الحياة الدنيا أساتذة متفقهين وأطباء بارعين؛ فذكر له: جراسيان وسليمان العظيم، وبوئييثوس، وبيد، وغيرهم. وعند ذكرهم كل اسم من هذه الأسماء كانت هالة النور المنبعثة من الأرواح تتحرك في انسجام عجيب كأنفاس الصبح توقظ للناس وتدعوهم للصلاة.

وعندما سمع دانتي ما يقول أكويناس، أخذ يفكر في حياة الجنون التي يحياها الناس في الحياة الدنيا – فبعضهم يزجون بأنفسهم في مسائل قانونية، والبعض الآخر يعملون على فرض سلطانهم بالقوة أو بالدسائس، وهؤلاء يسلبون وينهبون، وأولئك يركنون إلى الكسل طلباً للراحة وملذات الجسد الباطلة، بينما هو تستقبله السماء استقبالاً حافلاً بعد أن خلصت نفسه من هذه الشوائب.

واستشفت روح توماس أكويناس ما يدور في نفس دانتي فتابعت حديثها قائلة:

"لقد قررت العناية الإلهية إنقاذاً للدين الحق أن يتقدم قديسان

عظيمان لسدابة هذا الدين، وكان القديس فرانسيس أحد هذين القديسين رحيماً كأحد السرافيم[٤٣] أما الآخر وهو القديس دومينيك فكان حكيماً غزيراً في مادته كأحد الكروبيم[٤٤] وأخذ الاثنان يعملان من أجل غاية واحدة. وأصبح من يشيد بذكر أحدهما يشيد بذكر الآخر؛ وسوف أحدثك عن فرنسيس:

"بالقرب من بيروجيا ونهر شياسكو يقع منحدر ولد فيه رجل من الأفضل أن نسمي مسقط رأسه "بالمشرق" وليس "أسيس" لأنه كان في الواقع مبعثاً للنور، وكان لا يزال في ريعان شبابه عندما بدأت الدنيا تشعر ببعض العزاء مستمداً من قوته، فقد زهد في الحياة وأحب الفقر، ومن أجل الفقر تحدى إرادة أبيه ثم إرادة رئيسه الديني فجرد نفسه من ممتلكاته معلناً أنه اتخذ من الفق ديدنه – الفقر الذي ازدراه الناس، وباعدوا بينهم وبينه.

وقد أعجب الناس بهذا المثل الطيب الذي أدى إلى انتشار الأفكار المقدسة؛ فخلع النبيل برنارد، أول أتباعه حذاءه وجرى ليلحق "بهذا السلام العظيم"، وكان مشوقاً جداً لبلوغ هدفه لدرجة أنه ظن أنه كان يسير الهوينا مع أنه كان يجري بأقصى سرعته. وقد تبعه إجيديوس (Agiduis)، وسيلفستر (Sylvester). وكثير غيرهم وجميعهم يتمنطقون بحبل الفقر المصنوع من القنب، ولم يكن هناك ما يجرح كرامة فرنسيس لأنه كان ابنا لأحد النبلاء، وكان لا يضيق بالذين يستخفون به ويحتقرونه احتقاراً شديداً.

---

(٤٣) السرافيم: جمع "سراف" وهو ملاك بستة أجنحة يحف بعرش الله.

(٤٤) الكروبيم: جمع "كروب" وهو ملاك بجناحين في جمال الطفل وبراءته.

"وعندما ناداه ربه لينال جزاءه الحق أمر إخوانه أن يتفانوا ويخلصوا لمبادئه في التزام الفقر، وطلب إليهم أن يضعوه على الأرض ليموت؛ لأن جسده من تراب، ولم يسألهم إعداد نعش لجثمانه.

"... هذا هو فرانسيس الذي ولد في مدينة أسيس!".

وتوقفت روح توماس عن الحديث، وما إن توقفت حتى حضرت جماعة من الأرواح يحفها النور من كل جانب، وأحاطت بالجماعة الأولى وهي تعني ألحاناً عذبة جداً، إذا ما قورنت بها أرق الألحان على الأرض بدت سقيمة تافهة.

ودارت الحلقتان فبدتا وكأنهما قوس قزح مزدوج ظهر في غلالة رقيقة من الضباب، وأخذ رجع الصدى يردد شدوهم الرخيم والنور البهي ينعكس على أضواء ساطعة.

ثم صدر من أعماق إحدى تلك الأرواح النورانية صوت جذب انتباه دانتي كما يجذب نجم الشمال إبرة البوصلة، ثم قالت الروح:

"إن هذا الحب الذي يزيد في جمالي وبهائي يجعلني أتحدث عن القديس الثاني العظيم والرائد دومينيك الذي اتبع توماس أكويناس رسالته كما اتبعت أنا فرانسيس؛ وكان جنود الدين على الأرض مساكين جداً ورجاله قليلين، إلى حد أن الله لطف بعباده المخلصين فبعث إليهم هذين البطلين، فكان لوعظهما وأفعالهما الفضل في توحيد الصفوف والعمل على تقويتها.

"لقد ولد دومينيك في مدينة كالاهورا **Calahorra** في أقصى إسبانيا، وما كاد يعتنق الدين الجديد حتى رأت أمه فيما يرى النائم نجماً لامعاً على

جبينه ينير العالم بأسره؛ لقد كان دومينيك حقيقة فلاحاً في بستان الله، وأثبت بجدارة أنه داعية من دعاته. فلم يلبث أن أصبح مدرساً فقيهاً لا يسعى وراء كسب مادي بل يبحث عن الحقيقة وحدها.

ولما لجأ بعد ذلك إلى الرئيس الديني الأكبر لم يلجأ ليطلب منصباً سامياً، ولكن ليسأله أن يأذن له بالقتال في سبيل الله ضد العالم الضال.

"وبفضل تعاليمه وعظاته وبفضل أقوال أتباعه زاد التفاهم بين الناس، واختفى كثير من الخطايا، ثم تدفقت مبادئه جداول تروي بستان الإيمان. ولقد دفعتني كلمات توماس الرقيقة عن فرنسيس إلى الكلام عن داعية آخر من دعاة الدين، وأنا بونافينتورا **Bonaventura** لقد كنت في حياتي أوجه عظيم عنايتي إلى الروح لا إلى حرفية الكلمة.

ثم بدأ بونافينتورا وكان فيها مضى رئيساً لرهبان الفرنسيسكان، بدأ يتحدث إلى دانتي عن القديسين الذين كانوا معه.

وما إن فرغ من حديثه حتى انتظمت الأرواح المضيئة لهؤلاء النبلاء من القديسين ورجال الدين في رقصة سماوية، لا تحاكيها ولا تصورها الأربعة والعشرون كوكباً وهي تجري في فلكها الساطع المضيء.

ثم عاد توماس أكويناس إلى الحديث وأعقبه سليمان فأخبرا دانتي بأن هذه الأرواح سوف تكون يوم البعث في كمالها، وستكون مع ذلك في سعادة مطلقة عندما تعود كل منها إلى جسدها وتلازمه في النعيم الأبدي. وتلألأت الأرواح في أضوائها وأخذت تتمايل في انسجام بديع وهي تشع نوراً وهاجاً، فخيل للناظر أن حلقة أخرى من الأرواح أخذت مكانها حول

الحلقتين السابقتين، فبدت المجموعة كلها تسطع بالضياء والسناء، فلم تحتمل عين دانتي رؤية كل هذه الأضواء.

٥- دانتي يقابل جده كاتشاجويدا في سماء المريخ

تابع دانتي سيره مع بياتريشي إلى الطبقة التالية وهي طبقة المريخ، وأخذ هذا الكوكب يزداد تألقاً لمقدمهم، وما كاد الشاعر الفلورنسي يقدم الشكر لله لبلوغهما هذه الطبقة حتى رأى أمامه نوراً متوهجاً في لون الدم، أحاطت به من أوله إلى آخره أضواء لامعة تشبه النجوم التي تشع وتلمع عندما تتقابل مع بعضها. تلك أرواح القديسين المجاهدين، كانت تسبح في هذا النور الأحمر القاني، ويظهر أنها كانت تغني وهي تتحرك، لأن صوتاً موسيقياً كان ينبعث من هذا النور، ولم يتبين دانتي مقاطع اللحن بوضوح، ويغلب على الظن أنه كان لحناً رائعاً من ألحان التسبيح والنصر، ذلك أنه سمع بضع كلمات منه تقول: "انهض واغلب".

وبعد هنيهة توقف جنود السماء عن الإنشاد، وشاهد دانتي وهو يحملق في النور أعجوبة أخرى، إذ انطلق من الجهة اليمنى نور خاطف دون أن يترك أثراً لبريقه، واتخذ طريقه عبر الخط الرئيسي للعمود كنار تمرق من خلف المرمر الشفاف، أو كالنيازك التي تظهر في السماء الصافية، وتحدثت تلك الروح النورانية إلى دانتي ورحبت به كما رحب انخيسيس بمقدم إينياس في وادي النعيم. وابتدرته الروح قائلة:

"أي ولدي! لم يسبق لإنسان غيرك أن يحظى بنعمة الله بالمقدار الذي حظيت به فيطرق أبواب السماء مرتين!".

وعندما سمع دانتي هذه الكلمات أخذته الدهشة واستولى عليه العجب بعد أن سمع ما سمع، والتفت إلى بياتريشي فسلبت لبه بابتسامة رقيقة من عينها جعلته يتخيل أنه رأى الجنة عمقاً وارتفاعاً.

ثم عادت الروح إلى الحديث، وكانت كلماتها صعبة لم يفهمها دانتي أول الأمر، ولكنها قالت في النهاية:

"تباركت يا إلهي! يا من أكرمت بني جنسي ثم استطردت قائلة:

"لتكن أسئلتك محكمة، جريئة، مفرحة يا بني.. لقد توقعت مجيئك وانتظرتك منذ وقت طويل".

ثم التفت دانتي إلى بياتريشي لينال موافقتها التي زادت في رغبته الشديدة للكلام.

ثم بدأ حديثه قائلاً:

"أيتها الروح الكريمة، لا أستطيع أن أشكرك كما أريد لأني أعرف أني بشر زائل وأنك خالدة، ولذلك فسوف أحتفظ لك في قلبي بالشكر العميق لعطفك الأبوي، ولكن أخبريني يا لؤلؤة هذا الكوكب: من تكونين؟

وعندئذ بدأت الروح حديثها:

أنا جذر الشجرة وأنت ورقها، والابن الذي اتخذت سلالتك اسمها منه هو ابني وجد جدك.

"لقد كانت فلورنسا في أيامي تعيش بين أسوارها القديمة، وكانت موطناً للطهر والوقار لا تتبهرج نساؤها ولا تلبس القلائد أو التيجان لتجذب

عيون الرجال، ولم تكن بالمدينة مساكن تخلو من أهلها، ولقد رأيت أباء كثيرين من أسر عريقة يقنعون بارتداء سترة من الفراء الخشن عليها جلد وعظام، وتعمل نساؤهم في غزل الكتان بالمغزل ولا يطلين وجوههن بالأصباغ... كم كانوا سعداء هؤلاء الذين عاشوا آمنين، لم يخشوا في أي أرض غريبة يدفنون. فهذه سيدة تتعهد المهد وتداعب وليدها بلغة الأطفال وبكلمات رقيقة، وتلك تقص على أطفالها وهي تعمل على مغزلها قصصاً قديمة عن روما وطروادة.

"لقد ولدت في هذه المدينة الجميلة الوفية وعشت فيها عيشة آمنة هادئة ثم اعتنقت الدين الجديد ولقبت بلقبي القديم كاتشاجويدا، وقد انحدرت زوجتي من وادي نهر البو ومنها أخذت أنت لقبك. والتحقت فيما بعد بخدمة الإمبراطور كونراد **Conrad** فضمني إلى فرسانه؛ وسرت خلفه في إحدى الحروب الدينية واستشهدت في المعركة بعد أن مزقني الأعداء إرباً ثم أتيت إلى هذا المكان فنعمت بالسلام.

وكان دانتي مشوقاً مسروراً لرؤية جده والاستماع إليه، ولقد فاض به الفرح، ودفعه إلى التحدث مع كاتشاجويدا في حب واحترام فقال:

"حدثني يا من إليه يرجع نسبي الغالي... من هم أسلافك الأولون؟ حدثني عن فلورنسا في عهدها الغابر وكيف كانت مدينة عظيمة، وحدثني عن مواطنيها الكرام."

وازدادت روح جده تألقاً بالضياء وهي تستمع إلى كلمات الحفيد كما يتوهج الفحم المشتعل بفعل الرياح، ثم اخذ كاتشاجويدا يتحدث بلغة

العصر القديم وقال:

"لا يليق بي أن أخوض في الحديث عن أسلافي العظام. أما أنا فقد ولدت في عام ١٠٩١ ميلادية، وفي ذلك الوقت كان عدد القادرين على حمل السلاح يعادل خمس العدد الحالي، وكانت جميع الطبقات –حتى طبقة الصناع– من أصل نقي، ولم يكونوا خليطاً من الناس كما هو حالهم الآن. لقد أصبحت فلورنسا مدينة عظيمة جداً الآن، تسرب إليها كثير من الغرباء والأجانب، وكان من الخير أن يبقى هؤلاء الدخلاء جيراناً لها لا مواطنين بها! ثم ذكر كاتشاجويدا أسماء كثيرين من رجالات فلورنسا القديمة البارزين، وأسماء العائلات البارزة، الجديرة بالمجد والشهرة.

ثم اختتم حديثه قائلاً:

"في أيام هؤلاء القوم رأيت فلورنسا وادعة قانعة مجيدة يعمها العدل ولا تفرق الفتن والمؤامرات بين مواطنيها".

وما كاد كاتشا جويدا يفرغ من حديثه حتى سأله دانتي من جديد قائلاً:

"جدي العزيز الذي يعود إليه منبتي، عندما سرت مع فرچيل بين الموتى الحقيقيين على هذا الجبل حيث تتطهر الأرواح قيلت لي أمور كثيرة صعبة غامضة تتعلق بحياتي المستقبلة على سطح الأرض، ونظراً لأنك تستشف حجب المستقبل في وضوح، ورغم ما أشعر به من ثقة ضد عوادي الزمن، فإنه يسرني أن أعرف ما تخبئه إلى الأيام من محن وآلام، فالسهم الذي يتوقعه المرء قبل أن ينطلق غالباً ما يكون أقل خطراً".

فأجابه كاتشا جويدا بكلام واضح وحديث عذب لا يشوبه أي غموض قائلاً:

"يجب عليك أن تهاجر من فلورنسا، ولقد تقرر رحيلك عنها وفقاً لخطة موضوعة، فسوف تتهم بالإثم ولو أنك بريء ما ينسب إليك، وسوف تخلف وراءك كل ما تحبه نفسك، وستكون هذه أول طعنة تسدد إليك من سهم المنفى، وسوف تعرف بنفسك كم هو مرير خبز الآخرين، وكم هو صعب أن تصعد وتنزل على سلم الآخرين. ولسوف يكون أقسى ما تقاسيه زمالة الأدنياء الجاحدين لجميلك، وسوف تضطر إلى ترك هذه المدينة، وسيكون ذلك مدعاة لشهرتك وسيفتح لك كثيرون أبوابهم لإيوائك".

وما إن انتهى كاتشا جويدا من تحذير دانتي وإخباره بالمنفى العتيد، حتى سرد له أسماء بعض السادة الذين سوف يستقبلونه أثناء تجواله في منفاه وامتدحهم، ثم أمره ألا يكون حسوداً لانتصار أعدائه المؤقت، وأخبره بأن اسمه سيخلد طويلاً بعد أن يحاكم الذين اتهموه.

ثم عاد دانتي إلى الحديث فقال:

"إنني أفهم جيداً ما تقول يا أبتاه.. وأرى كيف يتلاعب الحظ بمستقبلي، ولكن أرجوك أن تخبرني بذلك أيضاً – هناك بين الموتى الحقيقيين على الجبل حيث قابلتني سيدتي وأحضرتني إلى هنا، وفي السماء أيضاً علمت أنه يؤلم الكثيرين أن أتحدث عنهم في الحياة الدنيا، ولكني لا أرغب في أن أكون صديقاً محجماً عن قول الصدق.

فأجابه كاتشا جويدا قائلاً:

"حقاً.. سوف لا يستسيغ كلماتك الصريحة من اسودت ضمائرهم. ولكن رغم ذلك أعلن لهم رؤياك، والقليلون هم الذين يرون ما تراه حقيقة، وألق بكل أكذوبة جانباً، وارفع صوتك عالياً منددأ بالفساد والرشوة في محيط ذوي المناصب الكبيرة، وسوف يوليك عملك هذا شرفاً عظيماً لأنك تحدثت أثناء طوافك إلى أرواح كان لأصحابها شهرة فيجب أن تذكرها حتى يكون لكلامك أهميته".

وهنا توقف كاتشا جويدا عن الحديث وظل دانتي يفكر فيها سمع، فوجد أن معظمه كان مؤلماً، لكن بياتريشي لاطفته بألفاظ رقيقة، ولما نظر إلى عينيها هدأت نفسه؛ ثم ابتسمت له وقالت:

"التفت.. وانظر.. واستمع فليست الجنة في عيني فقط".

فالتفت دانتي فرأى روح جده المضيئة ترغب في الحديث إليه ثانية وقالت:

"انظر إلى الكون السماوي المتوهج بالضياء وسوف ترى القديسين المجاهدين في سبيل الله يتألقون في السماء عندما أذكر أسماءهم.

وأخذ يسرد أسماء كثير منهم على مر العصور: جوشوا، شارلمان، وأورلاندو ووليم الأكويتيني، وروبرت جوسكارد وكثير غيرهم، وبينما كان كاتشا جويدا يذكر أسماء هؤلاء المجاهدين كانت أرواحهم المضيئة تنطلق خلال شعاع النور كقذيفة في صورة فارس سماوي، ولم يلبث كاتشا جويدا أن مزج نوره بنورهم، وعندئذ أخذت الألحان الشجية تتردد في عذوبة

وانسجام..

٦- سماء المشترى وأرواح الأمراء العادلين

نهض السائحان وأخذت سماء المشترى الكوكب السادس تتوهج من حولهما نوراً ناصع البياض، بينما ازداد وجه بياتريشي جمالاً وبهاء.

وعندئذ رأى دانتي أرواحاً تتألق تألق الأضواء الذهبية في جو فضي وهي تحلق وتغني كطيور السماء، وبينما كان يرقبها أخذت تلف وتدور وترسم حروفاً في الهواء تكونت منها هذه الجملة:

"أحبوا العدل يا قضاة الأرض".

ثم خطت أضواء الأرواح الذهبية الحرف (م m) رمز الملكية أو الإمبراطورية، ثم دارت بعد قليل وزاد تلألؤها وكونت من هذا الحرف نسراً كاملاً جليل المنظر يشير إلى أن القانون الروماني والعدالة الرومانية يجب أن يسودا العالم بأسره.

وهكذا عرف دانتي أن العدالة في هذا الكوكب هي صاحبة السلطان وأن الأرواح الذهبية المتألقة هي أرواح الأمراء والحاكمين الذين كانوا يسهرون على تطبيق العدالة. وقبل أن تشرق عين الشاعر بالنور بسط النسر الهائل جناحيه اللذين ضما أرواح هؤلاء الأمراء وكانت تشبه النجوم سناء، ولما كان هؤلاء الأمراء يهدفون إلى غاية واحدة لتحقيق مبدأ عظيم هو مبدأ العدالة، لذلك تكلموا معاً بصوت واحد صدر عن النسر كجدوات متقدة ينبعث منها لهيب واحد يقول:

"بما أنني كنت صالحاً وعادلاً على ظهر البسيطة لذا ارتفعت إلى قمة

المجد بعد أن تركت سيرة عطرة على الأرض لايزال الأشرار يذكرونها بالخير مع أنهم لا يهتدون بهديها".

ثم تحدث إليهم دانتي قائلاً:

"أيها الأرواح المباركة، ما دامت العدالة الإلهية واضحة جلية أمامكم، وليس بينها وبينكم أي حجاب، فإني ألتمس حلاً للمشكلة التي تؤرقني... إنكم تعلمون ما قد أبغيه بسؤالي ولذلك فسوف

لا أجهر به".

وتألق ضوء النسر فأضحى أكثر سناء ثم أجابت الأرواح الصادرة منه في صوت واحد تقول:

"إنك تريد أن تعلم كيف يكون من العدل أن الرجل الذي لم يؤمن بالدين الحق لا يسمح له بدخول الجنة؛ حتى لو كان يعيش عيشة فاضلة تتمشى مع المنطق السليم، ولكن من أنت حتى تناقش ما قدر الله أو تحكم عليه؟ أعلم أنه لن يبلغ هذه الطبقة السماوية من لم يتبع تعاليم الدين، ولو أن كثيرين ممن نحسبهم قد خالفوا شريعة السماء يكونون يوم الحساب أقرب إلى الله من الذين يدعونه ويتوسلون إليه – فمن المستحيل أن تدرك كنه عدالة السماء أو تفهم معناها العميق – فيجب عليك أن تؤمن بها فقط ولا تناقش فيها".

وكما تنظر صغار الطير وهي تلتقط طعامها إلى أبيها الذي يحوم فوق العش، نظر دانتي في احترام إلى النسر الذي يحلق فوقه. ثم عاد النسر إلى الحديث مرة أخرى فأخذ يلعن بقسوة بالغة كثيراً من الحكام لفساد

حكمهم وظلمهم، وما إن توقف عن الكلام حتى انطلقت الأرواح التي كان يضمها، و أخذت تغني وكانت ألحانها كالأجراس الملائكية، ثم خيل إلى دانتي أنه يستمع إلى خرير نهر منحدر يتساقط صافياً من صخرة إلى صخرة، ثم لم يلبث هذا الصوت أن تجمع في نغم واحد أخذ يعلو وينبعث من منقار النسر.

ثم قال الصوت:

"والآن أنظر جيداً إلى عيني لأنها تتكون من أهم الأرواح التي شكلتني، وهذا الذي يتألق في الوسط كإنسان العين هو الملك الذي تغني بقدرة خالقه، ويعرف الآن المنزلة السامية التي لترانيمها!. وهذه الأضواء الخمسة التي تشكل حاجب العين هي أرواح خمسة من السادة العظماء المفضلين.

وتحدث النسر إلى دانتي حديثاً طويلاً ثم أخبره أن كثيراً من الوثنيين يمكنهم أن ينالوا رحمة ربهم بالصلاة والإيمان... وأثناء كلامه عن العدالة الإلهية، كان نوره يزداد تألقاً وبريقاً...

٧- معراج التأمل:

نبض الشاعر الفلورنسي مرة أخرى بصحبه بياتريشي فبلغ سماء زحل الكوكب السابع، ولم تبتسم بياتريشي كعادتها من قبل، مع أنها أخذت تزداد بهاء وسناء، ذلك لأن هذا البهاء كان أكثر من أن تستطيع عين دانتي البشرية أن تتحمله.

وفي هذا العالم المحيط به رأى دانتي أمامه سلماً متألقاً عظيماً يرتفع ارتفاعاً هائلاً لا تستطيع عيناه أن تبلغا مداه، ومن هذا السلم كانت

تنحدر أرواح نورانية لا حصر لها ولا عد حتى خيل له أن جميع الأرواح السماوية قد تجمعت في هذه الطبقة.

وما إن بلغت هذه الأرواح درجاً معيناً من السلم حتى تفرقت، فأخذ بعضها الدور على أعقابه ويتجه إلى الخلف ثانية، بينما انطلق البعض الآخر إلى الأمام، وكانت إحدى هذه الأرواح قد اقتربت كثيراً من دانتي، وأخذت تتوهج بالضياء توهجاً شديداً حتى إن الشاعر الفلورنسي قال لنفسه:

"لا بد وأن هذه الروح ترغب في الحديث إلي، ولكن بياتريشي لم تسمح لي بعد الحديث، لذا فمن الخير أن أظل صامتاً".

وقرأت بياتريشي ما يدور في خلد دانتي فأذنت له بالكلام.

وسأل الروح فعلم منها أنه لن يستمع إلى أنغام موسيقية في هذه المنطقة مثل الأنغام التي كان يسمعها في السموات الأخرى لأن أحاسيسه الفانية لن تحتمل أثرها، ثم تابعت الروح حديثها إليه وأخبرته من تكون، ثم قالت:

"أنا عبد من عباد الله الذين آمنوا به وبدينه الحق، لقد نشأت في طاعة الله.. في دير على الصخور العالية بين شاطئ إيطاليا، كنت اكتفي بقليل من الطعام وأتحمل الحر والبرد، وتوفرت على حياة التأمل. ولم يكن لدى متسع من الوقت الفاني حينما دعيت لشغل منصبي الديني الكبير وارتداء القبعة القرمزية.

ثم أخذ القديس العظيم يصب جام غضبه وينتقد بقسوة حياة الفجور

والترف التي يحياها رجال الدين العصريون.

وبينما كان مستمراً في كلامه أخذت كثرة من الأرواح تهبط السلم وهي تدور وقد انبعث منها النور ثم تجمعت حول هذا الرئيس الديني الجليل، وانطلقت منها صيحة مدوية يفرق دويها الرعد القاصف الذي يسمع في الحياة الدنيا، فلم يتبين دانتي معنى هذه الصيحة واعتراه خوف ما بعده خوف.

وما إن التفت إلى بياتريشي حتى ألقاها تفتح صدرها لمواساته وقالت:

"هل نسيت أنك في السماء، وأنه ما من أحد يستطيع أن يلحق بك أذى في هذه السماء المقدسة؟.. لان كل ما هنا مقدس وكل ما جرى هنا فهو خير، وما تفعله الأرواح هنا إنما هو ترديد لآراء هذا الرجل الصالح: انظر إلى الخلف ثانية فسوف ترى أرواحاً كثيرة أخرى طاهرة.

والتفت دانتي إلى السلم السماوي، فرأى عليه مائة روح متألقة تزيدها أشعتها المتبادلة تألقاً وروعة، ثم تحدثت إليه أقوى هذه الأرواح بريقاً وقالت:

"إن الجبل الذي تقع عليه كاسينو (**Cassino**) كان به في وقت من الأوقات معبد خصص لعبادة آلهة وثنية، وأنا بنيديكت أول من حملت إلى هذا الجبل الإيمان بهذا الدين الذي جاء إلى الدنيا بالحق، وهذه أرواح من عشقوا التأمل ووهبوا لله أنفسهم، كثير منهم كانوا إخواني في العبادة، ولم تبرح أقدامهم المعبد وظلت قلوبهم طاهرة نقية".

ولقد تحدث القديس بنيديكت بمثل هذا الحديث الممزوج بالود

والعطف إلى دانتي، مما شجع الشاعر على أن يسأله عما إذا كان في استطاعته أن يرى القديس نفسه دون أن تحجب صورته إشعاعات النور.

فأجابه بنيديكت قائلاً.

"أمنيتك الغالية سوف تتحقق عندما تبلغ السماء العليا، حيث تتم جميع الرغبات، وتنضج، وتتكامل وتتحقق تحققاً تاماً، إن هذا السلم الذي تراه أمامك يؤدي إليها – إنه سلم التأمل، وقد امتد إلى أعلى تحمل الملائكة، والآن لا يحاول أحد على سطح الأرض الصعود إليه، ذلك لأن جميع الأنظمة التي يجري عليها رجال الدين في الوقت الحاضر قد انحطت. ولقد بدأ كثير من رجال الدين دعوتهم إلى الحق وليس معهم نقود أو ثروة، ومنهم من أقام دعوته على التواضع، أما أنا فأقمتها على الصلاة والصوم. ولكن الجميع ضلوا الطريق القويم، وأحالوا نقاء قلوب هؤلاء القديسين إلى ظلام.

وتوقف القديس بنيديكت عن الحديث، وتجمعت جماعة القديسين المتأملين وغيرهم من رجال الدين حول بعضها، ثم طارت كلها إلى أعلى على شكل دوامة عاصفة، فأشارت بياترشي إلى دانتي أن يتبعهم، وتغلبت على طبيعته البشرية فأخذ يصعد إلى أعلى دون أن يعرف كيف، ولكنه كان يتحرك بسرعة تفوق سرعة أي إنسان، فلم تمض لحظة واحدة حتى كان قد بلغ السماء التالية – سماء النجوم الثابتة.

فقالت له بياتريشي:

"إنك الآن قريب جداً من الأمجاد العليا، ولابد لعينيك أن أصبحا

صافيتين حادتين، ولهذا فقبل أن نمضي في طريقنا إلى أعلى انظر إلى أسفل لنرى كيف هو عظيم ذلك العالم الذي يقع أسفلك".

فالتفت دانتي وأخذ ينظر إلى أسفل فرأى الكواكب السبعة التي زارها آنفاً، ومن تحتها الكرة الأرضية. ورأى القمر، والشمس وعطارد، والزهرة ثم المشتري المعتدل بين المريخ الحار وزحل البارد، وكانت أفلاكها الدائرة تمتد أمامه، ورأى كيف أنها جميعاً هائلة، تدور في سرعة خاطفة، وأخيراً شاهد الكرة الأرضية الصغيرة التي يصطرع فيها بنو البشر في وحشية وقسوة: و بدت له صغيرة جداً، وابتسم عند رؤيتها ممتدة أمامه، يستطيع أن يرى عليها مجرى كل نهر، ويتتبعه من منبعه حتى مصبه. ثم وجه نظره مرة أخرى إلى بياتريشي.

٨- بعض القديسين الصالحين يختبرون دانتي وهو يخاطب آدم

جلست بياتريشي مولية وجهها شطر المشرق، تنظر أمامها بانتباه مثلها كمثل أم الطائر التي تتعجل انقضاء الليل في شوق لاستقبال النهار لتسعى وراء قوت صغارها، فتأخذ قبل الفجر مكانها على غصن من الأغصان، وتظل ترقب بشغف بزوغ شمس النهار، و بعد هنيهة قالت بياتريشي:

"انظر. هؤلاء هم فرسان الدين المنتصرون!"

ثم رأى دانتي شمساً متوهجة تنبعث منها آلاف الأضواء، وكان مركز هذه الشمس يضيء بشدة وسط هذه الأضواء الساطعة، فلم يستطع دانتي أن يحتمل بريقها، وهكذا كان نور الله يضفي أضوائه على عباده

الصالحين.

وقد أذهل دانتي كل هذا البهاء الرائع فلم يحتمل رؤيته، وغاب عن صوابه، ولم يدر ماذا حدث بعد ذلك.

وبعد قليل سمع بياتريشي تناديه، وكان يبدو كمن يثوب إلى رشده بعد رؤيا غامضة، وأخذت تبتسم له، وتتحدث إليه، وليس في استطاعة أي مخلوق أن يصف بقلمه الفاني جمال ابتسامتها، كما يستحيل على العقل البشري أن يقف على كنه رحلة دانتي!

وقالت بياتريشي:

"لا تنظر إلي وحدي.. التفت.. أدر عينيك إلى الحديقة الجميلة المزهرة تحت أضواء النور الإلهي! انظر إلى تلك الأمجاد السماوية وأولئك الرسل الأنقياء الذين مهدوا السبيل لنشر كلمة الحق!".

وأعاد دانتي النظر إلى ما حوله، فرأى كثيراً من الأرواح المضيئة من تحت نور ينبعث من وراء ستار، مثلها مثل روضة جميلة مليئة بالأزهار تنفذ إليها أشعة الشمس من خلف السحاب.

وكانت الأم الصالحة الطيبة أعظم الأضواء إشراقاً وجاء في هذه الروضة، وكانت تحيط بهامة الأم هالة عظيمة من النور كأنها التاج. وكانت تتردد في جنبات هذه الروضة نغمة عذبة شجية بلغ من عذوبتها أن أرق نغمة في الدنيا، وأشدها تأثيراً على النفس، تبدو جافة كهزيم الرعد، لا يمكن أن تقرن بهذه النغمة ولا أن تذكر معها.

وأنشد أحد الملائكة قائلاً:

"أنا الحب الملائكي جئت إليك وسوف أطوف بك حتى تصعدي أيتها الأم الطيبة إلى أعلى عليين".

ورددت كل الأرواح ترنيمة عذبة، ثم صعد بريقها المتوج، وأخذت الأنوار الأخرى ترسل أضواءها إلى أعلى وتتبعها بحبها. ولم تتحرك هذه الأرواح بل بقيت عالقة أمام عيني دانتي، وأخذت تترنم الترانيم الجميلة فترددها جوانب السماء.

ثم تحدثت إليهم بياتريشي وقالت:

"أيها الزملاء المختارون، أنتم يا من تستمتعون دواماً بالنعمة الربانية، حققوا رغبة هذا الرجل وأطفئوا ظمأه ليرتوي من ينبوع حكمة الله".

ولم تلبث هذه الأرواح السعيدة أن زادت إشراقاً، وأخذ وميضها يزداد بريقاً كالنجوم وهي تجري في فلكها، ثم دارت أكثر الأرواح بريقاً حول بياتريشي ثلاث مرات وهي تنشد أنشودة جميلة وقالت:

"أيتها الأخت المقدسة، لقد دعوتني بدعائك المحبوب".

فقالت بياتريشي لأحد أرواح الصالحين.

أيها الروح الصالح! بحق ذلك الإيمان الذي أعطاك مفاتيح الجنة، ومسكنك ذات مرة من السير على صفحة البحر، امتحن إيمان هذا الرجل، فمن الخير أن تختبر معلوماته".

وأخذت روح الرجل الصالح في سؤال دانتي فاقتنع بإجابته ومن ثم

باركه ودار حوله ثلاث مرات.

ثم سألت روح بعض الرسل دانتي عن "الرجاء" فسرها جوابه، وهنا حضرت روح رسول آخر وكانت تتوهج سناء فأخذ دانتي يحملق بعينيه في هذا السماء ليرى جسم ذلك الرسول.

فقال الرسول:

"لماذا تجهد عينيك لترى ما ليس موجوداً هنا؟ إن جسدي في الأرض، وسوف يبقى هناك حتى يوم البعث".

فالتفت دانتي إلى بياتريشي وقد استولى عليه قلق عظيم، ورغم أنه كان يقف إلى جوارها، لم يستطع أن يراها بعد أن أفقدته أضواء الأرواح نور عينيه فلم يعد يرى شيئاً.

غير أن الرسول أكد له أنه لم يفقد نور عينيه، بل إنها سحابة لا تلبث أن تنقشع، وأن بياتريشي سوف تعيد إليه بصره.

ثم عاد فسأل دانتي عن "المحبة" فأجابه وأفاض في الرد عليه حتى دوت أرجاء الجنة بأنشودة دينية اشتركت فيها بياتريشي، ثم التفتت إلى دانتي، ومن نظرة واحدة أعادت إليه نور عينيه فأصبح يرى بوضوح أكثر من ذي قبل..

ثم ظهر لهم نور رابع فأخبرت بياتريشي تابعها أن أشعة هذا النور تضم روح آدم أول البشر أجمعين، واشتاق دانتي إلى الحديث معه، فبدأ قائلاً:

"يا أبا البشر أجمعين إن كل امرأة ابنة وكنة لك – أتوسل إليك مخلصاً

أن تأذن لي بالحديث معك!

فتقدم إليه آدم، وهو يتألق نوراً وسروراً وقال:

"مع أنك لم تسألني بعد، فأنا أعلم ما تريد مني! لعلك ترغب في معرفة الوقت الذي مضى منذ أن أنزلني الله جنة عدن الجميلة، وكم قضيت هناك، وبأية لغة كنت أتحدث؟

"لقد أنزلني الله في الجنة منذ خمسة آلاف ومائتين من السنين قبل ميلاد المسيح، وقد مكثت في الأرض أكثر من تسعة قرون من الزمان ثم انتقلت إلى هنا، وأذن الله لي بالحضور إلى هذا النعيم. ولقد اختفت معالم اللغة التي كنت أتكلمها قبل أن يبدأ قوم نمرود في بناء برج بابل، لأن كل ما هو من صنع الإنسان زائل.

إن الطبيعة تهب الإنسان القدرة على الكلام.. ولكن أسلوب الكلام وطريقته من عمله.. لأن عادة البشر كالورقة فوق غصن الشجرة، أصفر ثم تموت لتفسح الطريق إلى غيرها. ولم تكد تمضي على سبع ساعات بجنة عدن.

وما إن انتهى آدم من حديثه حتى دوت أرجاء الجنة بنشيد من أناشيد التمجيد.

وبعد انتهاء النشيد عاد الرسول إلى الحديث، وأخذ نوره يتوهج احمراراً وهو ساخط حانق يتوعد في عنف خلفاءه الذين أفسدوا الدين من بعده، ثم أضاف قائلاً:

"إنه لم يحتفظ بالمفاتيح ليتخذها وسيلة للحرب، وقد كان رؤساء الدين الأول يعملون على توفير الطعام لرعيتهم ولا يتركونهم لقمة سائغة للذهاب الضاربة!"

وكان تشهير الرسول ساخراً لاذعاً، فاحمر وجه بياتريشي خجلاً عندما سمعت هذه القصة المخزية، ولم تلبث الجنة أن أظلمت أسفاً على ذلك، ثم أمر الرسول دانتي أن ينقل كلامه إلى عالم الأحياء كلمة كلمة... وكما يتساقط في فصل الشتاء ندف الجليد على الأرض بانتظام، كذلك أخذت الأرواح المنيرة الكريمة ترتفع إلى الطبقات العليا في الجنة كأنها قطع ندف متوهجة.

٩- دانتي يصعد إلى السماء "البللورية".. ويستمع إلى قصة رؤساء الملائكة

أخذ دانتي يتابع ببصره الأرواح المضيئة حتى اختفت عن الأنظار، ثم أمرته بياتريشي أن ينظر إلى أسفل ليرى الأرض من جديد. ودارت السموات عندما نظر دانتي إلى أسفل، ورأى العالم كما لو كان مرسوماً أمامه على خريطة، وكانت الشمس تسطع بأشعتها على البحر الأبيض المتوسط ويمتد نورها غرباً إلى ما وراء مضيق جبل طارق، وشرقاً إلى شواطئه الشرقية، وما وراء ذلك كان ظلاماً لأن الوقت كان ليلاً.

وعاد دانتي ببصره مرة أخرى إلى بياتريشي، وبينما كانت تزداد جمالاً وروعة أحس بأنه انتقل إلى السماء التاسعة – السماء البللورية آخر الطبقات العليا، وهي التي تدير حركة السموات الأخرى. وفيها بدأت الطبيعة تأخذ مظهرها، وكذلك الزمان، والحركة.

وبينما كانت بياتريشي تتحدث إلى دانتي عن طبيعة هذه الطبقة، أخذ يحملق في عينيها فرأى شيئاً جديداً ينعكس فيهما، فالتفت ليرى ما عسى هذا أن يكون؛ فرأى أمامه نقطة من الضوء لا تحتمل العين بريقها الأخاذ، وكانت تبدو أصغر حجمها من أي نجم نراه، وتحيط بها تسع حلقات نارية تدور حولها كهالة، وتحيط كل منها بما قبلها. وكانت أصغر الحلقات التي تدور حول مركز نقطة الضوء هي الأكثر توهجاً، ومضى في سرعة فائقة، بينما كانت الحلقات الباقية تندرج في سرعتها وتألقها.

وعندما رأت بياترتشي دانتي غارقاً في دهشته وحيرته، أخبرته أن ما يرى هو الحلقات المخصصة لأرواح رؤساء الملائكة الذين يلتفون حول عرش الله والمدبر الأعظم لكل شيء، وهؤلاء المقربون إليه هم الأكثر تألقاً.

وكان السرافيم أي الملائكة ذوو الأجنحة الستة في الحلقة الأكثر تألقاً وهم صورة لمحبة الله؛ ثم يأتي بعدهم الكروبيم وهم الملائكة الحكماء ذوو الجناحين؛ فالعروش الراسخة؛ فالسيادات: ملكوت الله؛ ثم الفضائل: القوة والجبروت، فالسلاطين: سلطان الله وجلاله الروحيان؛ فالرياسات لترشد حكام الأرض جميعهم، ثم رؤساء الملائكة رسل الله وحماة الأمم؛ وأخيراً الملائكة الذين يسهرون على حراسة كل فرد بذاته.

حدثت بياتريشي دانتي بكل هذا، ثم حدثته أيضاً عن رؤساء الملائكة ونشأتهم الأولى عند بدء الخليقة، وكيف سقط بعضهم، عندما أعمتهم الكبرياء البغيضة، مع الشيطان الذي رآه دانتي في أعماق الجحيم أضيق بثقل العالم كله.

ثم قالت:

"وأما الملائكة الآخرون فهم الآن بالقرب من عرش الله في خشوع وهم يعلمون أنهم ينتسبون إليه، ولذا تراهم يتبوأون مكانهم الرفيع هذا. إن عددهم أكثر مما يتخيله عقل بشري، ولكنهم مختلفون. وتلك عظمة الله ﷻ".

١٠- دانتي يصعد إلى سماء عليين حيث يرى جميع طبقات الأخيار الصالحين

تحدثت بياتريشي إلى دانتي عن كل هذا، وحدثته أيضاً عن رؤساء الملائكة، وأخذت الحلقات المتقدة أثناء حديثهما تتلاشى شيئاً فشيئاً كما تتلاشى النجوم عند الفجر، فلم يستطع دانتي أن يراها آخر الأمر، فالتفت ثانية إلى مرشدته.

وعندما رفع دانتى بصره نحو بياتريشى وجدها على درجة من الجمال يعجز القلم عن وصفه، ولا يمكن للعين أن تدرك مداه.

لقد كانت من قبل تتلألأ نوراً وتبدو رائعة الحسن، لكن جمالها في هذه اللحظة بلغ أقصاه، فلا يستطيع أن يدركه إلا الله الذي خلقه.

لقد تغنى بها دانتي في شبابه وما بعده، ولكن عندما تحدث عما وصلت إليه في الفردوس من روعة وجلال، اعترف بعجزه عن الكتابة في هذا الموضوع لأنه فوق طاقته.

ثم قالت بياتريشي.

"الآن.. لقد تركنا السموات التي تحيط بالفضاء، ووصلنا إلى سماء

عليين، سماء النور والحب والفرح، سماء لا حد لها، سترى فيها نزلاء الجنة، والذين اصطفاهم الله ستراهم بأجسادهم".

ثم غمر دانتي بريق هائل من الضوء، بلغ من شدة توهجه وتأججه أنه ذهب ببصر دانتي أول الأمر، ثم عاد إليه نظره حاداً قوياً يمكنه من رؤية كل ما تقع عليه عيناه؛ فنظر وإذا به يرى نهراً يتوهج بالضياء بين شاطئين نبتت عليهما أجمل أزهار الرابع، وتخرج منه شرر متقد يتساقط فوق الأزهار على الضفتين، و تبدو كأنها ياقوت قد رصع به الذهب، ثم يتطاير بعضها إلى النهر والبعض الآخر خارجه.

وقالت بياتريشي:

"إن هذا النهر والأجسام النورانية السابحة والأزهار ما هي إلا رموز لشخصياتها الحقيقية، ولكن بصرك لا يستطيع حتى الآن أن يرى الحقيقة كلها، ولذلك فأنت ترى رموزها. هذا هو نهر النعمة المقدسة، ينبوع الحكمة الذي شرب منه الكروبيم، أمعن النظر فيه حتى يقوى بصرك فتستطيع أن ترى الحقيقة الكاملة.

وأسرع دانتي إلى حافة النهر المتلألئ ونظر إليه فأحس أن بصره صار أكثر صفاء، وسرعان ما تغيرت معالم ما كان يرى، فصار النهر محيطاً مستديراً من النور، وانقلبت أشعة النور ملائكة، وتحولت الأزهار إلى أرواح الأبرار المختارين، وكانوا يجلسون في مراتب وطبقات عديدة حول الدائرة المتألقة، بينما كان نور الله يشرق من فوقهم، وكانت أنوار هؤلاء الأخيار تنعكس في المحيط كما ينعكس ظل التل على صفحة الماء عند قاعدته.

هكذا كان ينبعث نور الجنة بينما اتخذ القديسون أماكنهم الدائرة في طبقات بعضها فوق بعض، وجميعهم يسبحون بحمد الله.

ثم عادت بياتريشي إلى الحديث مرة أخرى فقالت:

"أترى كم هو عظيم تجمع هؤلاء القوم الصالحين في ثيابهم البيض؟ انظر ما أوسع عالمنا!! وما يزال هناك قليل من العروش الخاوية!"

وحملق دانتي مرة أخرى إلى الطبقات التي أمامه فرأى الذين قالوا الفداء وقد اتخذوا أماكنهم حول مركز النور المتوهج في صورة وردة نضرة بيضاء تتفتح أوراقها ورقة فوق أخرى.

وكانت الملائكة تتنقل بين وريقات هذه "الوردة" تم تصعد من آن لآخر إلى مصدر هذا النور العظيم كما تتنقل أسراب النحل بين الأزهار، وكانت وجوه الملائكة كلها من نور وأجنحتها من ذهب، أما أجسامها فكانت أكثر بياضاً من الثلج.

وعندما كانت تطير بين وريقات هذه الوردة كانت تنشر السعادة الخالصة والمحبة بين المنعمين، ولم تخف هذه الحشود الطائرة نور الله الخارق، ولم تحجب "المفديين" فنور الله لا حاجب له.

وكان نزلاء تلك الطبقة الجميلة يتطلعون إلى أعلى.. إلى ذلك النور ذي الشعب الثلاث الذي يباركهم جميعاً على هذه الصورة.

وذهل دانتي وأرتج عليه، وأخذ ينظر في صمت إلى هذا المشهد الرائع وهو يفكر: إن جماعات البربر التي تقطن أقصى الشمال إذا ما وقفت

تنظر للمرة الأولى إلى روما الجبارة وقد تملكها العجب" لن يكون حالها حال إنسان ينتقل من الدنيا الفانية إلى دار الخلود، من عالم يحده زمان ومكان إلى عالم لا يحده زمان أو مكان، من فساد أهل فلورنسا إلى ورع هؤلاء القوم الصالحين!.. وأخذ يتطلع إلى صفوفهم أعلى المكان وأسفله فرأى وجوه جذابة جميلة باسمه تستمد نورها من الله، ينتقلون من مكان إلى آخر تحف بهم الهيبة والجلال.

رأى دانتي الصورة الكاملة لوردة الفردوس، ولم يكن قد ركز انتباهه بعد في نقطة معينة، عندما التفت إلى بياتريشي ليسألها عن أشياء كثيرة، ولكنه لم يرها ورأى مكانها شيخاً من المباركين يرتدي رداء ابيض كغيره فابتسم له وحياه في رفق كأب حنون.

١١ - دانتي يتطلع إلى وردة الفردوس وينعم برؤية النور الرباني

وصاح دانتي قائلاً:

"أين بياتريشي؟".

فأجابه مرشده الجديد قائلاً:

"لقد استجبت لتوسلاتها فحضرت من مكاني لأقودك نحو هدفك الأخير، انظر إلى أعلى.. إلى الطبقة الثالثة من وردة الفردوس تراها على العرش الذي هي أهل له.

ورفع دانتي بصره إلى أعلى ورأى بياتريشي وهي على مسافة بعيدة بين صفوف المنعمين، ولكنها لم تبده أبعد عن ذي قبل، فصاح دانتي قائلاً:

"أي سيدتي.. يا من تفضلت بالنزول إلى الجحيم من أجلي، لقد شاهدت أشياء عظيمة بفضلك وفضل قوتك ونبلك، لقد أخذت بيدي من العبودية إلى الحرية.. اذكريني بفضلك دائماً حتى أستطيع أن أحتفظ بذكرى ما رأيت وأتبع الصراط المستقيم عندما أعود إلى الأرض!".

وعندما تكلم دانتي نظرت إليه بياتريشي مرة أخرى وهي تبتسم، ثم التفتت ثانية إلى ينبوع النور، وعند ذلك قال القديس ذو الرداء الأبيض الذي يقف إلى جواره:

"انظر إلى زهرة هذه الوردة الرائعة.. وسوف يقوى بصرك فتشاهد المنظر الأخير، سوف تساعدنا روح طيبة من السماء، أنا برنارد الخاص في طاعتها".

وتطلع إليه دانتي في دهشة ورهبة وهو يعلم أنه القديس الذي تجلى له الله وهو لا يزال حياً على الأرض.

وأمره القديس برنارد مرة أخرى أن ينظر إلى أعلى فأخذ دانتي يحملق في الوردة فرأى نقطة عند طرفها تتألق ببريق أقوى من أي ضوء آخر، وكان يحوم حول تلك النقطة أكثر من ألف ملاك يتهللون بشراً... ويسبحون باسم الله وحمده و جزيل نعمائه.

وشرح القديس برنارد لدانتي حقيقة وردة الفردوس، فمن عند المكان الذي تحتله تلك الروح الطيبة يمتد خط وسط "الوردة" إلى الخارج حتى الحافة السفلى يمر بالقديسين الأول نساء ورجالا، وتسمى له الكثير منهم. وعلى جانب هذا الخط الفاصل جلس الأخيار الذين عاشوا على الأرض

في العهد القديم وآمنوا بمقدم الدين الحق؛ وجلس في الجانب الآخر أولئك الذين عاشوا في العهد الجديد، وفي الصفوف السفلى على الجانبين كان يجلس الأطفال الذين ماتوا قبل النضوج فرحمهم الله وباركهم.

وأمر القديس برنارد دانتي مرة أخرى أن ينظر إلى النور الذي يفيض به وجه الروح الطيبة السابقة ليكون أكثر استعداداً لرؤية النور الإلهي، فأخذ يتطلع في سرور إلى أجمل المخلوقات جميعاً، ورأى أمامها الملاك الكبير جبرائيل الذي حل إلى الروح الطيبة رسالة الله، وكان يحلق هناك وهو باسط جناحيه، ويفيض قلبه بالحب والمرح ويرتل أنشودة: "سلام عليك أيتها الروح الطيبة" بينما أخذ الجميع يرددون النشيد في بهجة وسرور.

وتطلع برنارد إلى تلك الروح مبتهلاً وأخذ يقول:

"أيتها الروح الطيبة الطاهرة، بوأك الله مكاناً عالياً فوق الجميع يا من رفعت مكانة البشر بأعمالك.. يا مصدر الحب في عالم الخالدين يا معقد الأمل وينبوعه الحي! منك الرقة، والرحمة، والكرم، والفضل العميم.. إن هذا الرجل الذي حضر من أسفل سافلين إلى هذا المكان، والذي شاهد حياة مختلف الأرواح، يبتهل إليك أن تمنحيه القدرة الكافية ليرى "الصلاح الأكمل"

"هلا تفضلت فأزلت بصلواتك ما يعترض سبيله ليتمتع بالسرور الأعظم.

"إني أقدم كل صلواتي من أجله، انظري إلى القديسين.. إنهم يصلون

معي ومن بينهم بياتريشي!"

ورأى دانتي أن تلك الروح الطاهرة نظرت إلى برنارد بإمعان وهو يبتهل، ثم رفعت بصرها إلى أعلى.. إلى النور الأبدي كما لو كانت تتضرع إلى الله، ثم أشار إليه برنارد أن ينظر بدوره إلى أعلى – ناحية النور.

ولم يستطع دانتي أن يتذكر جيداً ما رآه، لأنه لما أراد أن يصف رؤياه بعد ذلك كان كالذي ينسى حلمه بعد أن يستيقظ من نومه ولا يذكر إلا آثاره – فلقد امحت الرؤيا من ذاكرة دانتي ولكن عذوبتها بقيت في قلبه إلى الأبد..

لقد رأى دانتي النور كله، والعالم كله عن طريق الحب الإلهي، وخيل إليه أنه يرى ضوءاً لا يمكن وصفه.. لا يفهمه أحد إلا هو نفسه.. وعندما أراد التطلع إلى أعماق هذا الكمال، اختفت الرؤيا بعد أن فاض عقله نوراً، وتجاوبت رغبته وعزيمته في انسجام خالص مع هذا "الحب" الذي يحرك الشمس والنجوم الأخرى..

الفهرس

الجحيم

المطهر

الفردوس